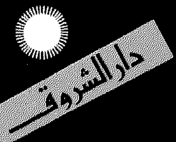
روجيه جارودي

كيف صنعنا القرن العشرين؟

20

ترجمة : ليلى حافظ



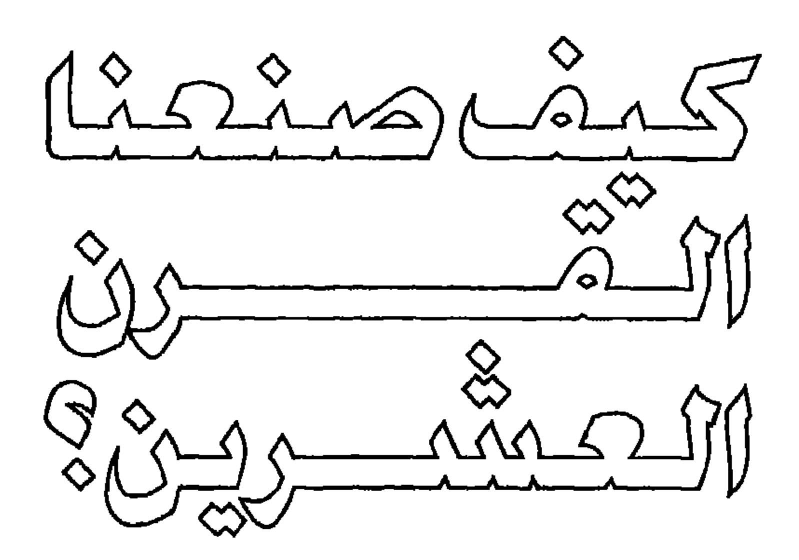
دار الشروق


كيف صنعنا
القرن
العشرين؟

الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
الطبعة الثانية ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

© دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى
- رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

روچيه جارودى



ترجمة : ليلى حافظ

دار الشروق

الفصل الأول

مسيرة قرن وحياة

١ ـ أن تعيش قرنا يحترق
٢ ـ اللقاءات على الطريق الأعلى
٣ ـ ١٩٦٨: لنكن معقولين، ونطالب بالمستحيل
٤ ـ فلسفة الذات وفلسفة الفعل

١ ـ أن تعيش قرنا يحترق

قد يكون من الحظ أن تولد مرتين فى النار : فتولد فى عام ١٩١٣ عشية الحرب العالمية الأولى ، وأن تكون فى العشرين من عمرك عام ١٩٣٣ عندما تخيم على أوروپا الأزمة الكبرى ويأتى بعدها هتلر إلى السلطة . فى ذلك الوقت كان علينا إيجاد وسيلة للحياة فى زمن العواصف . والآن فى الغابة التى يطلق عليها باستحياء تعبير : حرية السوق ، ومواجهات المتطلعين إلى السلطة ، والنمو ، وسعادة الأفراد والجماعات والدول ، حيث الحرية هى إمكانية أن يلتهم الأقوياء الضعفاء .

إن المشكلة دينية وسياسية بشكل لا يتجزأ . فهى دينية ؛ لأنها تحتم عليك اتخاذ قرار أن تحيا على أساس اختيار نهاياتك الأخيرة ، وسياسية ؛ لأن الخطر لم يكن يهدد سلامتنا الشخصية فحسب ، بل أيضا سلامة المجتمع البشرى كله ؛ ولأنه كان من الحتمى أن نشارك فى المعركة ، وأن نختار معسكرنا ونحدد منهجية المبادرة التاريخية التى أعطتنا الوسيلة لكى نتجاوز متناقضات الفوضى .

خلال تلك المرحلة الأولى من رحلتى الاضطرارية ، بدا لى وكأننى ـ فى مرحلة عمرى العشرينية تلك ، وفى إطار الثقافة الفلسفية لتلك

المرحلة السنّية ـ أعيش أفكار كيرك جارد ـ وكارل ماركس فى آن واحد. بدا لى أننى أعيش أفكار كيرك جارد؛ لأنه اقترح فى كتابه «الخوف والارتعاد» الذى كتب فيه تأملاته حول تضحية إبراهيم أنه، إذا تجاوزنا منطقنا البسيط وأخلاقياتنا البسيطة المؤقتة، يمكن أن تنبثق مطالب بلا حدود. ولقد وجدت فى تلك الفكرة ما يقضى على فكرة الفردية السخيفة، التى تمثل قلب وحجم كل الأشياء، وتقودنا إلى المواجهة الدائمة، على مستوى الفرد والدول، بين الرغبة فى النمو والرغبة فى القوة. لأول مرة اكتشفت الأهمية الحية للقيم المطلقة، ولإله ليس بعيدًا ـ فى السماء، نجومها وآلهتها المزورة ـ ولكنه قد يفرض وجوده كمطلب داخلى لا يمكن رفضه: مطلب من المسلمات الأساسية والأولية، التى تستطيع وحدها إعطاء حياتى وأعمالها تناسقا وفاعلية من خلال المشاركة فى حركة تاريخ حقيقية.

أما فى أفكار ماركس، والتى كنت أقرؤها فى ذلك الوقت بحماسة شديدة، غير أنه حتى ذلك الوقت كانت الحماسة فكرية فقط، لم أجد فكرا جديدا عن العالم، دينيا أو عقلانيا أو وضعيا، ولكنى وجدت مطلبا آخر: وهو ألا يدَّعى المرء القدرة على أن يحلّ وحده ـ فكريا فحسب ـ المشكلات التى انبثقت عن تلك الفوضى العالمية، ولكن عليه أن ينضم إلى قوة لمقاومة الفوضى، وأن يناضل من خلالها؛ حتى يقتسم معها فكر مانيس، بتعايش الخير والشر معا، بكل أخطائه وإفراطاته، وربما أيضا جرائمه، فى عالم حيث كانت الجريمة عالمية.

وهكذا أصبحت مناضلا، ولمدة أربعين عاما، فى حزب ادعى تاريخيا أنه يتبع منهج ماركس الذى أثبت الوضع التاريخى صحته

تماما، والذى ـ من الناحية العملية، من ميونخ وحتى المقاومة والنضال ضد استعباد أوروبا من قبل هؤلاء الذين صنعت منهم الحرب أسياد العالم وبأقل التكاليف ـ بدا لى أنه الأقل سوءا، حيث إنه لم يكن هناك حزب جيد.

أن يعيش المرء أفكار كل من ماركس وكيرك جارد فى فترة حياتية واحدة: كان بلا شك مشكلة عصر، فلقد سمعت سارتر نفسه يقول إن ذلك هو طموحه. (صحيح أننا خلصنا إلى نتائج متعارضة بشكل حتمى: فلقد حاول سارتر أن ينضم من الناحية الثقافية إلى الماركسية، منطلقا من المواجهة الدرامية التى تبناها كيرك جارد بين الذاتية والسمو، ومفسرا نظريته بنفسه، حيث وجد فيها «فلسفة هذا العصر التى لا يمكن تجاوزها»).

أما طريقى، فقد كان على العكس تماما: فما بدا لى أساسيا كان «التجسيد». فالمرء لا يقلب العالم بفكره. بل يجب عليه أن يعمل بيديه. وفى المعارك الحتمية التى تمزق العالم، لا يستطيع المرء أن يبقى فى السماء، ويكتفى فى كل لحظة بالدعوة إلى الخير، بينما عليه أن ينحاز إلى الأقل سوءًا، وهم عامة هؤلاء الذين لا يملكون.

ذلك فضلا عن ضرورة أن يسعى المرء إلى منح المناضلين الشعور بالسمو، بالطريقة التى حاولت القيام بها بشكل عميق: التجارب النضالية الإنسانية والإلهية فى عصرنا هذا، بطريقة القساوسة ـ العمال الذين كنت صديقا لهم، أو طريقة لاهوتيى التحرير، الذين يعملون على التوفيق بين التاريخ والسمو.

لا أعرف إن كنت قد فزت برهانى الأول أم لا ، ولكنى لا أندم على الإقدام عليه ، والتمسك طوال أربعين عاما ، بحزب وصلت لأكون أحد قياداته . لم أستقلْ أبدا من الحزب : **بل طردت منه فى عام ١٩٧٠ ؛ لأنى أكدت أنه لا يمكن اعتبار الاتحاد السوفييتى دولة اشتراكية .**

وكشف حساب أربعين عاما من الإخلاص لا يبدو لى سلبيا .

الحق يقال؛ إنه كان هناك داخل الحزب ، صراع دائم ضد كل تفسير إيجابى لفكرة الاشتراكية العلمية : الاشتراكية يمكن أن تكون علمية فى وسائلها : تحليل للاقتصاد الرأسمالى (لأنه لا يوجد ما يسمى بالعلم الاقتصادى إلا ما يتعلق بالإنسان الذى يشعر بالغربة بسبب النظام)، الإستراتيچية المتعلقة بذلك التحليل ، ولكن بشرط ألا يعمل أبدا ـ كما أكد ماركس ـ على التجريد من الإمكانية الدائمة لمقاطعة التغريب ، مهما كان ذلك عميقا .

وكان ذلك ما دفعنى لأن أنتقد بشكل جذرى الإيجابية الجديدة للماركسية ، حتى عندما أتخذ مع آلتهوسر ومريديه ، هذا الشكل البنائى : «الإنسان عبارة عن عروس خشب تحركها الكيانات على المسرح» ، ودفع من حقبة إلى أخرى ، كما كان يفعل آلتهوسر ، لحظة القطيعة الفلسفية التى سمحت لماركس أن يتحول من الأيديولوچية إلى العلم .

أن يخرج المرء من تلك الفوضى ، التى يتصور فيها كل فرد ودولة أنه مركز وحجم كل شىء ، فإن ذلك يتطلب الإيمان بقيم مطلقة تتجاوز منطقنا البسيط وأخلاقياتنا البسيطة : تضحية

إبراهيم . هذا اليقين فى سن العشرين ، دفعنى لأن أكون مسيحيا . وبنفس قوة الدفع أن أكون ماركسيا . ليس هناك أى تناقض ، ولكن هناك تكامل ؛ فالإيمان هو البحث عن النهايات. والماركسية غير المذهبية هى منهجية المبادرة التاريخية التى تسمح بتحليل تناقضات المجتمع ، وعلى أساس هذا التحليل تقوم باكتشاف المشروع القادر على تجاوزها . هذه الماركسية هى البحث عن الوسائل من أجل الوصول إلى تلك النهاية : إعطاء كل طفل يحمل داخله عبقرية موتسارت أو ڤان جوخ ، الوسائل الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية التى تسمح له أن يمارس عبقريته بالكامل .

فى هذا الطريق ، الذى تتبعته فى مذكراتى : رحلتى منفرداً خلال القرن ، كانت مهمتى الرئيسية فى الحياة هى أن أكتشف معناها وأن أنجز تلك المهمة من منطلق أن العمل السياسى والإيمان والإبداع الفنى ، كل ذلك يعتبر شيئا واحدا .

الفن هو الطريق الأقصر الذى يصل إنسان بإنسان آخر ، وليس هناك تعليم أكثر ثورية من تعليم الطفل أن العالم ليس حقيقة مؤكدة ، مكتملة الصنع ، ولكنه عمل عليه أن يخلقه .

والسياسة فى مفهومها السامى ـ ذلك الذى يعطينا الإحساس بأن كلا منا مسئول عن مصير كل الآخرين ـ لا تكبلنا داخل تلك المعضلة : فردية الغابة أو شمولية الأوارض[١] .

---

(١) جمع أَرَضة ـ بفتحتين ـ وهى دويبة تأكل الخشب . مختار الصحاح .

من ذلك المفهوم، فإن الثورة فى حاجة إلى السمو أكثر منها إلى التصميم، وعصرنا فى حاجة إلى أنبياء (لكى يذكرونا بالنهايات) أكثر مما هو فى حاجة إلى رجال دين يعطوننا الوسائل الضخمة فى خدمة أى نهايات كانت.

لقد سمح لى المجهود الدءوب الذى قمت به من أجل أن أضم لحظة السمو بالكامل إلى الفكر الماركسى، أثناء تأسيسى ورئاستى لمركز الدراسات والأبحاث الماركسية، أن أنظم على مستوى الغرب المسيحى (من إيطاليا إلى ألمانيا، ومن كندا إلى الولايات المتحدة) الحوار بين المسيحيين والماركسيين، حيث تعلمت الكثير، من خلال غزارة الأعمال المتبادلة، من كبار علماء اللاهوت المسيحيين: فى فرنسا من الأب شنو والأب دوبارل، وفى ألمانيا من كاثوليك مثل كارل رانر، أو بروتستانت مثل يورجن مولتمان، وفى إيطاليا هناك الأب بالدوتشى وجيراردى، وفى تشيكوسلوفاكيا هناك الراعى هرومادكا، وفى إنجلترا هناك الأسقف روبنسون، وفى الولايات المتحدة الأب كورتنى موراى والأب كوينتين لاور أو هارفى كوكس، وفى إسبانيا هناك رجل الدين چونزاليس رويز والأب كافارينا.

فى ذروة هذا الحوار، فى سالزبورج، تقدم الأب رانر، أحد أهم الخبراء فى المجمع، بالسؤال النهائى والذى يجيب فيه عن تساؤلاتى: مذكرا إياه أنه حين يقدم ماركس منهجية للمبادرة التاريخية (مسألة نظام الوسائل) فإنه قام، رغم كل شىء، بتفسير الاشتراكية أولا من خلال أهدافها: أن يشكل لكل طفل يحمل داخله عبقرية رافائيل أو موتسارت، الظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية، التى تسمح بأن

تتفتح داخله كل إمكانياته . لقد توصل الأب رانر ، كما أرى ، إلى الإجابة عن بحثنا المشترك ، وذلك من خلال إثبات (كما كتب فيما بعد في مقدمة الترجمة الألمانية والإنجليزية لكتابى : من اللعنة إلى الحوار . ماركسى يتحدث إلى المجمع) أن ماركس ، قام ـ كما حاولت أنا خلال هذا الحوار ـ بتقديم تفسيرات النهايات قبل الأخيرة ، بينما المسيحية كانت «دين المستقبل المطلق» . بالنسبة لى ، فقد قبلت عن طيب خاطر تلك النظرية ، وأسمح لنفسى أن أضيف إليها : لنعمل معا ، كاثوليك وماركسيين ، من أجل الوصول إلى النهايات قبل الأخيرة ، وإذا تصورنا ، نحن ـ الماركسيين ـ أننا وصلنا إلى نهاية التاريخ ، فإنه سيسعدنا أن تكونوا ـ أنتم أيها المسيحيون ـ إلى جانبنا ، لكى تقولوا لنا : يجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك فى الخلق . ولكن ، ياليتكم لا تقولون لنا ذلك مبكرا ، حتى لا نضطر أن نبتعد عن طريق النضال فى اتجاه الهروب التقى .

لقد بدا لى فى ذلك الوقت أننا وصلنا معا إلى الهدف الروحانى الذى نشدناه ، ولكن مازال أمامنا الكثير من العمل لكى نستطيع أن نوجه مجتمعاتنا إلى ذلك الهدف .

منذ ذلك الحين ، أوضحت الأحداث ؛ مثل عودة الكنيسة الكاثوليكية إلى الخلف مقارنة بالانفتاح العظيم الذى قام به مجلس الفاتيكان ٢ ، وتراجع الأحزاب الشيوعية ، وتفكك الاتحاد السوفييتى ، والانقسام المتزايد فى العالم بين الشمال والجنوب ، وفى كل مكان آخر بين هؤلاء الذين يملكون والذين لا يملكون ، من خلال الانتصار المؤقت لوحدانية السوق ، انتصار الأثرياء وسحق العامة ـ

كل ذلك أوضح أى الطرق تبقى لنا لكى نسير فيها من أجل تجسيد الحقائق التى استطعنا معا أن نستشفها .

بالنسبة لى، فبعد النتائج الإيجابية التى تم التوصل إليها على أساس الاستيضاح النظرى للمشكلات، ولكن أيضا بعد تحديد حجم المخاطر الجديدة فى العالم المنقسم بين الشمال والجنوب، اقترحت فى عام ١٩٧٤ على المجلس المسيحى للكنائس (فى وجود مراقبين من الڤاتيكان) أن نمد حوارنا : مسيحيين وماركسيين، نحن جميعا لدينا نفس المراجع الثقافية : اليهودية - المسيحية واليونانية - الرومانية . اقترحت أن ننتقل من الحوار المسيحى - الماركسى إلى حوار أكثر عالمية، حوار الحضارات مع آسيا وإفريقيا وأمريكا الهندية .

استقبل المشروع ببعض البرود؛ لأننى فسرت الحوار وكأنه تبادل أفكار، حيث كل طرف على اقتناع منذ البداية أن لديه شيئا يعلمه للآخر، مما يعنى أنه على استعداد للاعتراف بأن الحقيقة التى يؤمن بها تفتقد شيئا وأنه على استعداد لأن يعيد النظر فيها .

هذه الفكرة التى تقوم على أن هناك مواضع نقص فيما كانوا يدعون إليه منذ قرون، لم تجد صدى إيجابيا، خاصة من قبَل ممثلى الكاثوليكية . (يجب أن أقول إننى قابلت نفس التردد لدى العلماء المسلمين، ولأسباب مشابهة : الادعاء بأنهم يملكون الحقيقة المطلقة) .

ومرة ثانية صدمت من الجانبين، بفلسفة الذات، وفلسفة المعيار المطلق للحقيقة والخير، وخلق نظام كامل مرة واحدة وإلى الأبد؛ إذا كان الله قد أراد هذا الإنسان ونظامه، فإنه من الكفر أن يدعى الإنسان

تغييره، وإذا وجدت رؤية إلهية أو نبوءة أخيرة، فإنه من الكفر أيضا أن نفكر فى تجديدها أو إصلاحها.

فى مسيرتى نحو الإسلام، حاملا فى يد الإنجيل وفى اليد الأخرى ماركس، حاولت أن أعيد فى الإسلام - كما فعلت فى الماركسية - إحياء الأبعاد الداخلية والسمو والحب.

فى مواجهة كل الأصولية التى تدعو إلى الانغلاق والمجابهة فى عالم أصبح - تكنيكيا - واحدا، فإن الإسلام فى حاجة إلى لاهوت التحرير.

وأيضا الماركسية.

والغرب فى مجمله فى حاجة إلى البريسترويكا.

إن ما حدث فى الشرق لم يكن بأى حال، فشل الماركسية، ولكن فشل انحرافها، وفشل كل محاولات عودة الرأسمالية، وهذا أسوأ.

ولكن الأخطر أن يبدأ اليوم، من أجل المستقبل، تخطيط عملية تمزيق الكون بين غرب متحالف، من المحيط الهادى إلى الأورال، متجاوزا الخصومات الاستعمارية القديمة وتوازنات الرعب القديمة بين الشرق والغرب، من أجل استمرار هيمنة الشمال على الجنوب. إن ما يحدث ليس حروبا عالمية، حيث المستعمرات كانت مجرد مكونات إضافية فى الآلات الحديدية لصراع الكبار، ولكنها حرب بين عالمين اثنين: حرب بين نادى الأغنياء الذى يريد الاحتفاظ بالاحتكار والسيطرة على كل ثروات الكون، ضد باقى دول العالم التى أصبح ينتظرها مصير من المجاعات على شاكلة هيروشيما.

٢ ـ اللقاءات على الطريق الأعلى

لقد كان من حظى أن أعرف القرن العشرين من الداخل ـ إن صح التعبير ـ وليس من خلال الكتب، وذلك بفضل العلاقات الشخصية، التى كانت أحيانا أخوية، وأحيانا جدلية، مع معظم هؤلاء الذين صنعوا هذا القرن (باستثناء الذين رأيتهم عن بعد فقط، أو من خلال كتاباتهم). العلاقات الشخصية وحوارات مع ستالين وجنرالات ستالينجراد، مع خروتشوف وجورباتشوف، وكذلك مع البابا بولس السادس ويوحنا بولس الثانى، مع الجنرال ديجول فى الجزائر وكذلك مع موريس توريز، الذى كان بمثابة مرشدى طوال ثلاثين عاما. ومنذ الحديث الذى أجريته مع إمبراطورة إيران فرح ديبا التى أسست فى طهران، مع حسين نصر وكوربين، فرعا جديدا لمعهد حوار الحضارات الذى أنشأته أنا، حتى لقاءاتى مع الخمينى وآيات الله الذين أصبحوا مقربين منى، مثل هؤلاء الذين جاءوا إلى قرطبة من أجل الاحتفال بافتتاح المركز الثقافى الأندلسى الذى أنشأناه لتأكيد الوجود الإسلامى فى الغرب.

فى إفريقيا، حيث أسسنا ـ مع الرئيس سنجور، على جزيرة جورى

الرمزية ـ جامعة للتبادل ، للبحث فى أسلوب تطور المواطنين الأصليين . وحتى تنزانيا حيث أرانى الرئيس نيريرى فيها إنجازه الأول .

كان هناك لقاءات لا تنسى مع هوشى منه ، وكذلك مع تشى جيفارا ، وفيدل كاسترو ، ومع بن بيللا كما كان مع أربكان ، وناحوم جولدمان ، الرئيس الأسبق للمجلس اليهودى العالمى ، الذى دعانى إلى منزله فى القدس مع بعض الزعماء الإسرائيليين التاريخيين . ولقائى مع ناصر فى القاهرة ، وحافظ الأسد فى دمشق .

وخلال أربعة عشر عاما قضيتها فى البرلمان كنائب ثم عضو مجلس الشيوخ ، ورئيس لجنة التعليم القومى ونائب رئيس المجلس ، كان هناك القليل من الذكريات ، والقليل من الوجوه ، باستثناء وجه القس پيير ، أخى منذ نحو ستين عاما ، منذ المجلس الدستورى الأول ، ووجه مارك سانييه (الذى لقبناه بـ «العم مارك») .

كما كان تأثير حواراتنا المسيحية ـ الماركسية أكثر عمقا ، حيث استطعت ، بفضل الكاردينال كونيج من ڤيينا ، أن أعمل مع كبار خبراء مجلس الڤاتيكان ٢ ، هؤلاء الذين كانوا كتّاب تلك النصوص الأكثر صرامة : Gaudium et spes الأب شنو ، والدى الروحى ، والأب كونجار الذى بعث لى برسائل يعزينى عندما أدرك مدى ألمى بعد طردى من الحزب الشيوعى ، والأب رانر وهانز كونج .

تلك الحوارات تدين بثرائها إلى حد كبير للتجربة التى تم معايشتها فى شينييفر ، مع القساوسة ـ العمال ، والتى تميزت بأخوية حميمة إلى حد أن الكاردينال سوهار ، الذى كان رئيس الأساقفة فى پاريس ، كان

يستطيع أن يقول لأى منهما : «إذا كان القساوسة ـ العمال فى حاجة إلى إحسان، فيمكنهم أن يختاروا شخصا آخر غير روچيه جارودى!» وكانت دعوته لى فيما بعد، لتناول الطعام على مائدته، مما أثار ضحك خليفته الكاردينال مارتى.

ثم جاء الانفتاح الحتمى مع أكبر أمل شهده عصرنا : لاهوت التحرير. فكان أولا لقاء دون هيلدر كامارا، رئيس الأساقفة البرازيلى، وأخى منذ ثلاثين عاما. ثم بعد ذلك، لقاء مع الأب جوتييريه، أول عالم لاهوتى فى لاهوت التحرير، والأب إلاكوريا الذى شارك فى افتتاح مركزنا فى قرطبة، قبل اغتياله بأيدى فرق الموت، وليوناردو بوف الذى أعطى فكرة وجود ضمير عالمى، ورامون بانيكار الذى أعطى من ـ پيناريس إلى سانتا باربرا، ومن عش الصقر فى تافيرتيت فى كاتالونيا ـ المثل على المسيحية التى عمت بمساهمة الروحانيات الهندية، كما ذكرنا مع ميرسيا إلياد فى سانتا باربرا.

أما البروتستانت، فقد كان اللقاء فى ستراسبورج فى عام ١٩٣٧ مع كارل بارت، الذى فتح طريقا جديدا يؤدى إلى اللاهوتية، ثم فى سالزبورج، مع يورجن مولتمان الذى قدم لاهوت الأمل، وفى كارلوفى فارى، مع الراعى هرومادكا، المتحدث البطل باسم العقيدة المسيحية، فى شرقى أوروبا. ومن الأفكار الخصبة الأخرى، تلك الخاصة بالكتّاب الذين كانوا يفكرون لزمنهم، وأحيانا كانوا يتوقعونه.

كان هناك شعراء، مثل پابلو نيرودا، الذى قابلته فى منفاه فى المكسيك، أو التركى نظيم حكمت الذى قابلته فى هلسنكى، وتزارا

وإلوار وأراجون وسان چون پيرس ، الذى أضاء يوما كاملا على شبه جزيرة چين ، سيزار أو سنجور .

كان هناك أيضا أدباء مثل رومان رولان ، الذى كانت رسالة واحدة منه تمثل الوميض فى حياتى كلها ، ويورج أمادو ، الذى أيقظ الضمير الشعبى فى أمريكا اللاتينية ، وإليا إيرينبورج الذى قدم لى معرفته الانتقادية للاتحاد السوڤييتى ، كما فعل هان سوين بالنسبة للصين .

كان هناك فنانو مسرح وسينما تعلمت منهم فكرة الحياة التراچيدية ، أكثر مما تعلمت من الوجوديين . ومنهم جوفيه على سبيل المثال ، الذى قبل أن يدير قسم تاريخ المسرح فى موسوعة النهضة الفرنسية الذى كنت أديره بعد التحرير ، بجانب رجال علماء ، أمثال پول لانجفان وچوليو كورى .

كما أنها لم تكن تجربة بسيطة تلك التى مارستها فى مهنتى أستاذ لفلسفة الفن بالجامعة ، وجعلتنى أعيش ملحمة الفن المعاصر ، وأن أكون صديقا لپيكاسو الذى لم يقدم فقط رؤية جديدة لعالمنا تخالف ما كان يقدمه الفن الكلاسيكى منذ عصر النهضة ، ولكنه رسم من خلال لوحته الچيرنيكا ، جرائم عصر .

لقد عرفت مجددى الواقعية البرازيلية ، عندما عشت فى ريو دى چانيرو فى بيت بورتينارى ، أو عندما عشت فى المكسيك تجربة الواقعية المكسيكية الجديدة مع صداقة دييجو ريڤيرا وسيكويروس ، والواقعية الجديدة الإيطالية فى إخاء مع جوتوزو ، والتجريد الشعرى فى تناغم مع الفنان ماتيو .

والرقص، الذى يمثل بعدا للحياة، سمح لى بلقاء أساتذة الرقص الأمريكى الحديث مثل مارتا جراهام، التى كنت أعتبرها إلهة، وآلفين نيكولايس، وميرس كانينجهام، وفى الاتحاد السوفييتى مايا بليسيتسكايا، وفى فرنسا بيجار، الذى كتب مقدمة كتابى «أن ترقص حياتك»، ولودميللا تشيرين التى قدمت شخصيتها فى سان سپاستيان فى أوپرا پاريس. ثم أكبر راقصى الهند، رام جوبال، الذى قدم لى فى لندن كيف يخرج رقصة الشيفا: الإلهة التى قامت بخلق وتدمير أكثر من عالم.

أما فى الفلسفة، حيث كان عمل حياتى كلها يتركز على جزئية فلسفة الذات، والتى قادتنى إلى قبول النظام القائم على فلسفة الفعل، أداة التغيير كما علم كارل ماركس، فقد كان لى الحظ أن يدعونى إلى هذا البحث الكاثوليكى موريس بلونديل الذى كتب رسالته حول «الفعل» وأيضا چاستون بيرچيه، الذى تحول من علم الظواهر لهاسيلر إلى المنظور الذى لا يهدف إلى التنبؤ بما سيكون من خلال استقطاب الحاضر والماضى، ولكن إلى تقديم أشكال للمستقبل مختلفة وممكنة استنتجت من كل قرار من قراراتنا.

أما راعى رسالتى، جاستون باشيلار، فلقد ساعدنى على تحقيق التواصل بين الأعمال الخلاقة الإضافية للشعر، والعلوم. وأخيرا كان هناك ماركيوز الذى أصبح رفيق المعركة فى عام ١٩٦٨.

والعديد من الأصدقاء الآخرين الذين أعطونى المثل لكيف تكون على حذوه حياة بطولية فى خدمة رغبة واحدة: من رينيه فوتييه كاتب سيناريو فيلم «أن تبلغ العشرين فى أوريز»، وحتى برنار مواتيسييه ملاح

فيلم «بلا خوف وبلا عتاب». أو عملاق الموسيقى يهودى مينوحين، الذى كانت إنسانيته أكبر من فنه، وفى دفاعه عن كل ما هو مقدس، شجعنى فى لقاءاتنا فى قرطبة وڤيينا، على البحث عن وحدانية العقيدة.

كانت تلك بعض عناصر التجارب التى عشتها فى هذا القرن، والتى تسمح لى اليوم بأن أخوض فى حلول للمستقبل فى القرن الواحد والعشرين، ولكنها أيضا تعمل على إثارة الملل لدى هؤلاء الذين يريدون بأى ثمن الاحتفاظ بالوضع القائم بما فيه من المختارات ومن المرفوضات، وما فيه من رأى موحد.

لذا؛ فقد قمت بطرح هذا العمل المستقبل، وسيلة عمل، كمن يقذف زجاجة فى البحر، بأمل أن تحملها أياد شجاعة إلى كل السواحل، وأن تخرج منها النفوس المتحررة والشفافة قرنا جديدا.

هذا الكتاب ما هو إلا صرخة إنذار لكل الأحياء. وهى أولا صرخة ألم؛ لأن العالم كله هو جسدى، ولقد شعرت بالألم فى فلسطين وفى سيرتاو بالبرازيل. ورأسى يحترق من التمرد؛ لأن معظم زعمائنا السياسيين أوالروحانيين لايتمردون، أو أنهم أصابهم الخواء.

إنها أيضا صرخة أمل؛ لأننى أعلم تماما أننى لست وحدى. فأنا ابن مليارات من الموتى الذين لم يعرفوا أبدًا إن كان من الممكن أن يُستفاد من حياتهم وعملهم وآلامهم وموتهم. ولكن أملهم سيعيش ألف عام فى صدور أبنائنا.

من هذه الشجرة أنا مجرد برعم. مجرد نطفة ولا ترضى أن تكون غير جديرة بما سينبثق عنها.

سنحارب حتى آخر نفس كل هؤلاء الذين يريدون أن يفرضوا علينا بقوة المليارات والصواريخ، تاريخا كاذبا ومستقبلا أفرغ من معناه، يريدون أن يفرضوا علينا الصمت على حقائقنا الجزئية والمضطربة.

إن الإنسان فى خطر: أمله وربه مهددان بالموت.

وعلينا جميعا أن ندافع عن أمل الإنسان وكرامة ربه.

٣ـ ١٩٦٨: لنكن معقولين، ونطالب بالمستحيل

شهد عام ١٩٦٨ نقطة التحول الحاسمة فى تفكيرى، والتى مثلت مرحلة أساسية فى تطور فلسفتى عن «الفعل» عن طريق مقاطعة فلسفة «الذات» مقاطعة جذرية .

على الرغم من أن عام ١٩٦٨ انتهى بالهزيمة، أى بعودة المجتمعات الغربية إلى تورطها القديم، فإنه كان يحمل فى داخله الأمل بالعودة إلى الكونية وتجاوز الهيمنة العالمية والاستعمارية للغرب، أى بالعودة إلى نموذج من التطور يتزاوج فيه النمو الاقتصادى بالسعادة، وحرية التبادل التجارى بالحرية، وحرية الأغنى والأقوى فى استغلال والتهام الأضعف .

الجديد فى هذه الانتفاضة أنها لم تحدث فى فترة أزمة: بل كانت نسبة البطالة والتضخم منخفضة، ومعدل النمو عال نسبيا. كان يبدو أن النظام يعمل جيدا.

وفجأة تفجرت أكبر حركة اجتماعية عرفتها فرنسا (حتى خلال حكم الجبهة الشعبية) : لقد أضرب عشرة ملايين موظف عن العمل، وسيطر الطلاب على الجامعة، وظهرت علامات التردد حتى على أكبر أجهزة الدولة.

لقد تبلور حدث جديد جذرى. فمن المعتاد أن تتفجر الإضرابات الكبرى والتفجرات الاجتماعية المختلفة فى فترات أزمة اقتصادية أو اجتماعية أو تجمد سياسى.

ولكن فى عام ١٩٦٨، لم يحدث شيء من ذلك.

وفى خلال أسابيع قليلة انتقل الطلاب من انتقاد الجامعة إلى انتقاد المجتمع ورؤيته السرطانية للنمو. وفى قوائم المطالب العمالية، ركز العمال على مطلب المشاركة، وحتى الإدارة الذاتية، أكثر مما ركزوا على زيادة الأجور.

لقد تفتحت رغبة عامة: وهى المشاركة العملية فى تحديد أهداف ومعانى العمل (سواء العمل اليدوى أو الفكرى) وكل الأسس الاجتماعية.

وذلك يعنى، أنه فى لحظة استقرار نسبى ونجاح النظام، كان هناك إدراك عام أن النظام عندما يكون ناجحا، فإنه يمثل خطراً أكبر وتغربا أكبر، عنه عندما يكون فاشلا.

ولقد أدى ذلك إلى تغيير فى المعنى نفسه للثورة. فحتى ذلك الحين، كان الثورى هو من يحدد متناقضات النظام والأزمات المرحلية التى تنتج عنها. كارل ماركس قام بذلك فى زمنه بشكل يثير الإعجاب وأسس منهجية المبادرة التاريخية من أجل تحليل تلك المتناقضات، ومن منطلق ذلك التحليل، يتم اكتشاف المشروع القادر على تجاوزها. ومنذ ذلك الوقت ـ وبدون التخلى عن ذلك الاكتشاف الأساسى لماركس ـ تم التركيز على المشروع، وهو ما عُد تاريخيا غير ناضج، وبالتالى، غير

قابل للتنفيذ فى عصر ماركس، حيث الرأسمالية، حتى فى إنجلترا، لم تكن قد وصلت إلى ازدهارها الكامل.

إنه لمن المدهش أن تلك الحركة كانت عالمية، لأن النموذج الغربى كان يسيطر عالميا. كان العامل المشترك فى كل تلك الحركات ـ برغم وجود اختلاف فى الصيغة نتيجة لاختلاف الأوضاع الخاصة بكل دولة، وبرغم طريقة التعبير التى تراوحت ما بين الفوضوية والتشوش والروحانية، وهو ما سهل عملية قمعها فى كل مكان ـ هو الأمل فى التحرر من التغرب الذى يعانى منه نظام، لم يعط أى معنى آخر للحياة بجانب الاهتمام بارتفاع معدلات الإنتاج والاستهلاك.

وفى تجربتى الشخصية، قادنى الانضمام إلى مبدإ تلك الحركة، ثم مشاركتى مع بعض مظاهرها، إلى الطرد من الحزب الذى كنت حتى ذلك الوقت أحد قياداته. وفى منصبى كأستاذ جامعة، تعلمت الكثير من طلابى. إذ قال أحدهم: «تلك ليست ثورة، بل طفرة»!

كان كل شيء فى نفسى يتذبذب ويتفاعل أمام ما بدا لى أنه عملية تحول عالمية. فى ٦ من أبريل فى روما، التقيت بماسترويانى، الذى بدا أنه يستشف ـ بجانب دوره كقس ـ عامل الذى اقترحته عليه ـ جانبا آخر ممكنا يختلف عن الصفة التجارية التى فرضتها السيناريوهات: وهو الجانب الشاعرى والإعلان عن مستقبل جديد.

٩ من أبريل، عقد فى چنيف فى المجلس المسيحى للكنائس (البروتستانتية والكاثوليكية): حوار حول النمو..

٢٣ من أبريل : مناظرة في كلية العلوم اللاهوتية الكاثوليكية في أنجير حول «المعنى الروحاني لثورة أكتوبر» .

في ٧ من مايو ، حوار نظمته اليونسكو حول ذكرى مرور مائتي عام على مولد ماركس : مواجهة مع ماركيوز حول القوى الدافعة لثورة المستقبل ، حيث تعارضت إجابتان : تلك التي اقترحتها عن الكتلة التاريخية ، والتطور التكنولوچي المتداخل في الطبقة العمالية التي تضم نوعيات جيدة من العمال ، سواء بسبب الميكنة الزراعية التي حولت المُزارع إلى عامل أجير ، أو بسبب تقنية وآلية الصناعة ، مما ساعد على تطوير مكونات ثقافية واسعة للكتلة التاريخية الجديدة .

أما ماركيوز فقد قامر أساسا على العالم الثالث والمهمشين .

واليوم أعتقد أن أمام تلك المواجهة كان يجب استبدال بحث تركيبي يضم بعض العوامل التي تضمنتها رؤيتنا نحن الاثنين ، مع الأخذ في الاعتبار المتغيرات التي وقعت ، منذ ثلاثين عاما ، في الكتلة التاريخية الجديدة ، كما في العالم الثالث ، وفي علاقاتهما المتبادلة الممكنة .

تلك التصورات حول تفرد الحركة لم يعجب الأعضاء الآخرين في قيادة الحزب : وفي نشرة «الديمقراطية الجديدة» نشرت مقالا بعنوان «تمرد وثورة» ، حيث سعيت إلى إظهار «الرابطة الداخلية والعميقة بين تطلعات الطلاب وأهداف الطبقة العمالية» .

صدرت النشرة في ١٢ من مايو . وفي ١٥ من مايو قررت سكرتارية الحزب استبعادي .

وأصبحت مجرد إنسان مفصول مع التأجيل .

وبرغم ذلك كان يتم استغلالى، طوال عام كامل، **كأداة تصدير** :

فى كلية علم اللاهوت بهايدلبرج حول حوار : المسيحيين ـ الماركسيين .

وفى مونتريال حول كتابى : **ماركسية القرن العشرين** .

وفى كاليفورنيا، فى سان فرانسيسكو، حيث دعانى الأب باكلى إلى إلقاء كلمة معه فى الصلاة المقامة عن ڤيتنام .

وفى لندن من أجل مناظرة مع الأب چينيير، وهو من الچيزويت، ومدير نشرة : المشروع .

وفى بروكسل، مع الطلاب حول كتابى : المشكلة الصينية .

لم يحدث أن قام أى من الأنشطة الخارجية تلك بتلويث الحزب الفرنسى .

ولكن فى أغسطس عام ١٩٦٨، وبعد الغزو السوفييتى لتشيكوسلوڤاكيا، تلقيت أول توبيخ عام بعدما قمت بالتنديد بالزعماء السوڤييت .

تم اتخاذ قرار وقفى فى المؤتمر التالى للحزب، فى فبراير عام ١٩٧١ . وعندما أعلنت أن «**الاتحاد السوڤييتى ليس دولة اشتراكية**» تم استبعادى من كل مهامى، ثم تم فصلى من الحزب .

لم يكن ذلك مجرد مأساة شخصية، بل فرصة تاريخية ضائعة : فلأن الحزب الشيوعى لم يفهم المعنى النظرى لحركة ١٩٦٨، ولأنه بالتالى أصبح غير قادر من الناحية العملية على أن يقودها، سقط منذ

ذلك الحين إلى قاع التاريخ، ليتحول بعد عملية تحلل بطيئة إلى مجرد مجموعة صغيرة ابتلعها الحزب الاشتراكى، ثم ينضم معه إلى «الفكر المتفرد»، ذلك الفكر الخاص بالنمو وبأوروبا، وبالعولمة، أى قبول مسألة الهيمنة الأمريكية وفكرتها عن وحدانية السوق.

بعد ذلك، لم يعد للحزب الشيوعى مهمة تاريخية يحققها: وأصبح حزبا مثل باقى الأحزاب، سياسيا لائقا، أى أنه لم يعد يقترح بديلا ينفصل عن النظام المهيمن.

منذ ذلك الحين، بدأت وحدى أتلمس طريقى، وأفكر وأطور ذلك الطريق الآخر، البديل (فى عام ١٩٧٤) فى كتاب «نداء إلى الأحياء» فى عام ١٩٧٩ .

فى هذا الكتاب الأخير، وبعد تأسيس المعهد الدولى من أجل الحوار بين الحضارات، فى چنيف عام ١٩٧٤، بدأت أستشف أخيرا أسباب اضمحلال الغرب، وإمكانات وجود أساليب حياة مختلفة تقدمها الدول غير الغربية، التى لم تتوقف عن التطور العرقى الأصلى منذ خمسة قرون، برغم ضغوط الاستعمار، وأستشف تصورات لإمكانية وحدة العالم التى تستطيع وحدها اليوم أن تضمن استمرارية الكون ونهضة حقيقية للإنسانية.

***

٤ ـ فلسفة الذات وفلسفة الفعل

عندما أتابع حياتى كلها اليوم وأجملها بنظرة واحدة، كى تصبح وحدة واحدة برغم التنوع فى بحوثها، تتجلى أمامى تلك المرحلة التى أنتقل فيها من فلسفة الذات إلى فلسفة الفعل.

فى السياسة، أدى الكفاح الطويل ضد الإصرار على كل ماهو قائم، وضد كل فلسفة مخططة للتاريخ تحدد له مسبقا نهاية معينة، ومنذ انحرافات الماركسية حين فكرت فى قلب هيجل، مثلما تصورت، أدى ذلك الكفاح إلى استبدال منطق المادة بمنطق النفس. ذلك التصميم التاريخى جعل من الاشتراكية مرحلة ضرورية، تأتى بعد المراحل الأخرى وتنبثق عنها. (منها، على سبيل السخرية، انحرافات فوكوياما الذى ادعى نهاية التاريخ وانتصار وحدانية السوق). **إن التاريخ لم يصنع من وقائع بل من اختيارات إنسانية ومن إبداعات إنسانية.** ويصبح من المهم إذن أن نستعيد الإلهام من ماركس، وأن نفهم معه أن البشر هم الذين يصنعون تاريخهم، حتى وإن لم يصنعوه بطريقة تعسفية، ولكن من خلال الأوضاع التى أملاها عليهم الماضى. ذلك وإلا سنجد أننا نصنع أعدادا كبيرة من الثوار الذين

سيجعلون من معنى التاريخ مصيرا ، وسيسعون إلى تغيير كل شيء فى العالم باستثناء أنفسهم .

فى الأخلاقيات، فإن تلك هى الجدلية الطويلة ، التى من خلال مشوار حياتى ـ فى أعمالى ستون عملا أعلنوا المستقبل ؛ أن ترقص حياتك وخاصة عن الواقعية بلا مرفأ ـ انتقدت الواقعية فى أعمال أرسطو ، التى تراجعت لتكون مجرد تقليد لعالم صنع بالفعل ، ولم أعترف بالإعلان من خلال الفن ، عن مستقبل على وشك أن يولد وعالم فى حالة ولادة دائمة .

فى اللاهوتية، البحث القلق والمنفعل عن الله الذى لم يكن ذاتا بل فعلا ، الفعل الذى صنع الذات ، والذى نُدعى كل يوم للمشاركة فيه معه . إذا كان هناك إله صنع العالم مرة واحدة وإلى الأبد ، وإذا كان كل نظام وكل سلطة هما أيضا من نتاج عمله الأبدى ، فسيصبح من الكفر أن ندعى أننا نغير هذا النظام وتلك السلطات . «أطع هؤلاء الذين منحهم الله السلطة» ، ذلك هو المبدأ الأساسى لكل فكر يعمل من أجل الهيمنة ، سواء كان القديس بولس أو المسلم الجبرى ومريديهما اليوم .

إن الله ـ كما بيّن القرآن ـ لا يتوقف عن الخلق وإعادة الخلق ، وإنه أودع لدى الإنسان (كل إنسان) مهمة أنه خليفته فى الأرض من أجل أن يكمل خلقه .

الفصل الثانى

حضارة الغــرب حــادثة

- الانفصال الأول: من سقراط إلى النهضة
- الانفصال الثانى: النهضة (فردية الغابة ومولد الذئاب)

الافتراضات الثلاثة لفلسفة للموت:

(أ) من آدم سميث إلى وحدانية السوق (الفلسفة الإنجليزية)

(ب) من ديكارت إلى التقنية (الفلسفة الفرنسية)

(ج) من فاوست إلى عالم اللامعنى (الفلسفة الألمانية)

- الانفصال الثالث:

(أ) الولايات المتحدة، رائدة الانحطاط

(ب) الولايات المتحدة، مستعمرة إسرائيلية ؟!

الانفصال الأول:

من سقراط إلى النهضة

تم انقسام العالم منذ آلاف السنين، من خلال ثلاث عمليات انفصال للغرب، الذى تصور دائما أنه يملك الثقافة الحقيقية والوحيدة فى العالم.

***

بدأ أول انفصال مع سقراط وتلميذيه: أفلاطون وأرسطو، مؤسسى فلسفة الذات.

بارمينيد ديلييه (فى إيطاليا) قدم التركيبة الأولى لها: الذات موجود، واللاذات غير موجود. وذلك يستبعد من الواقع كل ما لا يمكن أن نعقله بالمنطق. وبالتالى، فهو يحدد الذات، وحتى اليوم فنحن نقول: بالنسبة للوضع القائم، فيما يتعلق بالذات، كل ما عداها، فى شكلها البحت والبدائى ما هو الا اضمحلال. فعلى سبيل المثال قام أفلاطون فى كتابه الجمهورية، بتفسير مراحل انحلال النظم السياسية، منذ الأصول الأرستقراطية وحتى النظم الديماجوجية الأخيرة فى فترة حياته، ولا يقترح إلا العودة إلى نظام الطبقات كحل

حيث التسلسل الطبقى يضم السادة، ثم العسكريين والسياسيين الذين أطلق عليهم لقب الحراس، ثم فى المرتبة الأسفل العامة الذين يمدون المدينة باحتياجاتها، مثل المزارعين وبخاصة العبيد، هؤلاء كرسوا أنفسهم للعمل اليدوى فى المزارع أو المناجم.

وضع سقراط، من خلال مساهمته الخصبة فى انتقاد المعرفة، الأسس لتقسيم الذات إلى تصورات وكلمات، وأنهى أرسطو هذا العمل - وتكرر ذلك فى أوروبا طوال ٢٥ قرنا عن طريق تقسيم الذات والأفكار التى تفسرها والكلمات التى تعبر عنها، إلى طبقات - ورأى أن منهج المنطقية، الذى نجم عن هذا الامتداد للأفكار والذى جمعهم جميعا فى قالب واحد. الواحد داخل الآخر، هو المقياس العقيم لكل فكرة إبداعية، وبالتالى - فهو مسيطر على كل أشكال التقسيم، سواء كانت الطبقية فيها اجتماعية أو مسألة تصورية.

تشير فلسفة الذات تلك إلى تقلص قاتل لساحة الفلسفة.

إن كل ما تسامى عن التصور (والذى كان المرء يُعده مماثلا لكل ما هو دينى أو مقدس) كان يستبعد. ولم يعد لدى سقراط إلا بقايا أطراف: وما أطلق عليه لقب شيطانه، الذى يذكره أحيانا بأن هناك مجالات تتجاوز الواقع الإنسانى البحت.

منذ ذلك الحين أصبح كل شىء مركزا على الإنسان ومنطقه الوحيد (حيث إن الأخلاق لم تكن بالنسبة لسقراط إلا جزءا من المنطق)، أما الطبيعة، فلقد تركت للأعمال الدنيا التى يقوم بها العبيد أو الفعلة، ولذا ليست مؤهلة لأبحاث الحكماء. أما العلوم اليونانية فهى أساسا

علوم تأمل . وحتى مع جهود بعض الأطباء أو علماء فى الفلك والتاريخ الطبيعى ، مثل أرسطو حيث التأمل يلعب دورا يقوم من خلاله بتوسيع الساحة التى خصصها للتقسيم الطبقى ، أكثر من جهده لتحليل الحياة الخاصة للأحياء بشكل مختلف عن تحليل الشكل العام أو مكوناتها أو نهاياتها الداخلية أو الخارجية .

وهكذا انفصل الإنسان عن الإله وعن الطبيعة فى الوقت نفسه .

كما انفصل عن سائر العالم الإنسانى : فمن كان غير إغريقى ، أى من كان لا يتحدث اللغة ، تعد كلماته مجرد تهتهة لا آدمية ، ويعدّ همجيا .

وهكذا قام العالم الإغريقى (ثم القردة الرومانيون الذين قلدوه وأصبحوا أقوياء فى منطقة البحر المتوسط) بأول انفصال له عن سائر العالم . حتى إن أحد القساوسة ، «كليمنت» من الإسكندرية ، سخر بما ادعوا أنها المعجزة الإغريقية عندما ذكر فى كتابه ستروماتات (الجزء الأول ، ١٥ ـ ٤٦ ـ ٦٢) أن المصادر الأولى لكتب أفلاطون وفيثاغورس : «أنبياء مصر ، والسحرة فى فارس ، والصوفيون فى الهند» .

استطاع نيتشه أن يكتب بمنطق ويقول إن الانحطاط بدأ مع سقراط ؛ لأن معه بدأ انفصال الغرب عن آسيا . وهؤلاء الذين نطلق عليهم ـ خطأ ـ أسلاف سقراط ، لم يبشروا بقدومه ، (كما يبدو من الاسم أسلاف سقراط) بل على العكس من ذلك : فبسبب اتصالهم مع مفكرى الشرق ، كان لديهم تصور شامل لعلاقة الإنسان مع

الطبيعة والآلهة ومع الآخرين. تاليس من ميليهThales de Miles، وأناجزاغور من كلازومينAnaxagore de Clazomene، وفوقهم جميعها هيراقليد من إيفيس، لم يكن لهم من الإغريقية إلا اللغة التى فرضت عليهم بعد الغزوات.

لقد تكشف لدينا أن كبار المفكرين ممن يتحدثون اللغة الإغريقية فى الشرق الأوسط، يعيشون جميعهم فى أقاليم تابعة للإمبراطورية الفارسية، أى أنهم يعيشون عند مفترق الطرق مع كبرى الأفكار الآسيوية الحكيمة. لم تفصل أى من تلك الأفكار تأمل الإنسان عن الدراسة الحية للطبيعة. وجميعهم كَتَب رؤياه فى أشعار (بينما نفى أفلاطون الشعراء من كتابه الجمهورية).

بعد هيراقليد بدأ الإنسان الغربى يعيش طفرة كبيرة: فمنذ ذلك الحين انفصلت المادة عن علم الخلق؛ أى الإنسان عن الله. فى هذا الفكر المغترب، فقدت الكلمات والأشياء معنى العلامات الإلهية.

ظل هيراقليد يتكلم لغة الكهنوت والرؤى:

«الكل واحد».

«القانون هو أن تطيع رغبة واحد».

«الحكمة تتضمن شيئا واحدا: أن تتعرف على الفكر الذى يحكم كل شىء وكل مكان».

«بلا أمل لن نعثر على اليائسين».

«الكون عبارة عن نيران حية دوما، تتأجج وتنطفئ حسب إيقاع محدد».

«الله، الذى وضع مهبط وحيه فى ديلف، لا يتكلم: بل يصمم».

هذا التصور لا يسمح بتفسير إلا ما هو موجود بالفعل. أما المستقبل، الذى لا يزال فى حيز الخلق، فيمكن أن يذكر فقط من خلال التشبيهات والاستعارة وكلمات الأنبياء.

أن يحيا المرء الموت. أن يموت المرء حياته. تلك هى الأفكار المتداولة للإنسان وربه، «الحراس المتيقظين للأحياء والموتى».

* * *

المصدر الثانى للانفصال الغربى يكمن فى الفكر اليهودى ـ المسيحى. فبعد الكونية الكبرى للمسيح الآسيوى (كما كتب الأب دانييلو)، استعاد القديس بولس ومريدوه الفكرة الملعونة للشعب المختار: كان هناك فى الماضى الجوييم أى غير اليهود، ولكن بعد ذلك أصبح هناك الوثنيون والكافرون الذين يجب دعوتهم إلى الدين المسيحى، أى استعمارهم روحانيا مثلما تم استعمارهم اجتماعيا.

هذا الخليط من اليهودية والهيلينية (إذ بعد القديس بولس لم يعد يستخدم اسم يسوع، بل المسيحية christianisme، وهو الاسم المشتق من كلمة christ أو cristos، وهى الترجمة اليونانية للكلمة العبرية القديمة لكلمة المسيح messie، والتى تهدف إلى استعادة مملكة داود، التى ليس لها صلة بالمملكة التى تعهد بها المسيح) أسفر عن تعميق الانكسار الإنسانى. وبجانب المتحضرين من الرومان الإغريقيين، لم يعد هناك إلا الهمجيون («الإغريق خُلقوا للحرية،

والهمجيون للاستعباد» كما كتب يوريبيد). بل كان هناك ولمدة عشرين قرنا، المفكرون والمواطنون الذين يطيعون الكنيسة الرومانية (وريثة الإمبراطورية الرومانية) والضلاليون.

وهنا أيضا ظهرت إضافة غير شرعية : تلك الخاصة بالآباء اليونانيين، والتى تشبه أسلاف سقراط.

كانوا يكتبون باللغة اليونانية، ولكن إضافتهم البناءة لم تكن من أجل تحويل المسيحية إلى الهيلينية، ولكن إثراءها بكل حكمة الشرق. الأب سيجوندو Segundo كتب يقول إن «مرحلة مذهب قساوسة الكنيسة تقاوم اتجاهات الهيلينية التى تثير عدم الاستقرار».

من هم القساوسة اليونانيون؟

يعيشون ويتأملون فى الشرق الأوسط ومصر، وفى الإسكندرية. چوستين Justine ولد فى نابلس فى فلسطين، إيرينيه دى ليون Irenee de Lyon ولد فى سميرن Smyrne، وسان كليمنت Saint-Clement من الإسكندرية مثل أوريجينOrigene ، سان هيلار دى بواتييه Saint - Hilaire de Poitiers نفى فى الشرق حيث كتب أهم أعماله. بازيل العظيم Basile le Grand ، جريجوار دى نازيانس Gregoir de Neziance وجريجوار دى نيس Gregoir de Nysse هم آباء كابادوشى Cappadoce (والتى تعرف اليوم بتركيا). إيفريم Ephrem السورى، سيريل Cyrille من القدس، وسيريل من الإسكندرية، ولدوا جميعا مثل چون كريسوستوم Jean Chrisostome، فى أنطاكيا (سوريا اليوم) كانوا جميعهم من الشرق، ليس فقط بالمولد، ولكن أيضا بالفكر العميق الذى من خلاله قاموا

بمعايشة تجربة الثالوث المسيحي بدون أن يبتروا تلك التجربة من أبعادها الروحانية الشرقية.

هذا الإرث الشرقي، والذي وجد لدى پلوتين Plotin، ظهر بوضوح لدى آباء الكنيسة حيث سان كليمنت من الإسكندرية، الذي يعرف جيدا البوذية، كتب يقول: إذا عرف الإنسان نفسه جيدا، سيعرف الله، وبمعرفة الله يصبح الإنسان إلها. (بيداجوج القسم الأول، ٣)

«خلق الله الإنسان حتى يستطيع الإنسان أن يصبح إلها». ذلك ما ظل آباء الشرق يقولونه منذ سان إيرينيه.

تلك النظرية (تأليه الإنسان) لا تدين بشيء إلى الهيلينية، باستثناء الكلمة التي تستخدم في معنى مختلف اختلافا جذريا، لأنها تعني أساسا مشاركة الإنسان ليس في مضمون الأب أو في جوهره - وهو غير مطروح - ولكن في طاقته، والتي يمكن المشاركة فيها بشكل مستمر في عملية التخليق الدائمة المتفجرة: «الإنسان كما هو عليه، هو ما أراده له المسيح حتى يستطيع الإنسان أن يكون كما المسيح».
(سان سيبريان، المعبودون ليسوا آلهة، القسم الحادي عشر، ١٥)

إن ثراء تلك التجربة، جاء نتيجة معايشة الآباء الإغريق وعلماء اللاهوت من بيزنطة لتلك التجربة بدون أن يضطروا إلى الانفصال عن حكمة وروحانية الشرق وإيران والهند.

الفرق بين الله الخفي، وطاقاته التي يمكن أن يشارك فيها الإنسان بكامله، جسدا وروحا، تقترب من الهوية العليا الهندية والأوبانيشاديين.

إن ذلك يبتعد عن الازدواجية اليونانية للمضمون ولانفصال الروح والجسد. سان جريجوار فى نازيانز، أشار إلى أن الفكر المسيحى يجب أن يستمر «بطريقة الحواريين وليس أرسطو». ويقول سان جريجوار من نيس: «إن الأفكار تخلق عباد الله».

كان ذلك أول انفصال للغرب، والذى أدى إلى تقسيم العالم بين الحضارة الرومانية اليونانية، وسائر الهمجيين، أو بين شعب مختار (اليهود أو المسيحيين) وعالم من الوثنيين الكفار.

هذه الهيمنة الأولى استمرت ١٢ قرنا، منذ قسطنطين (٣٢٦)، حيث بدأت القسطنطينية، (خليفة الجهاز المهيمن للإمبراطورية الرومانية والتى تحولت إلى الكنيسة الرومانية)، وإضفاء صفة التقديس إلى الشعب المختار مما ترجم بعد ذلك إلى فكرتين: مناهضة السامية المتعمقة ضد اليهود المتنافسين، واضطهاد الوثنيين لأنهم اختاروا طريقا آخر غير الطريق الأورثوذكسى للتوجه إلى الله.

بعد أن تم الاستيلاء هكذا على التراث العبرى للشعب المختار، وبعد قيام سان أوجوست بتعميد أفلاطون، وسان توماس داكين بتعميد أرسطو، تلك الكنيسة الرومانية التى أعيد تهويدها ويونانيتها، توصلت عبر الخلافات بين القيصر والبابوية؛ بين الإمبراطورية والكهانة، وعبر التحالفات المقدسة المشكوك فى أمرها، بين السلطة الدنيوية وتلك الروحانية، توصلت إلى بناء أوروبا والهيمنة عليها بدون مشاركة أساسية، بفضل الحملات الصليبية ومحاكم التفتيش، إلى أن أصبح مقبولا أن يطلق على ذلك العصر اسم النهضة.

هذا الانفصال الأول للغرب كان نتيجة لأسطورتين تاريخيتين: الأولى عن المعجزة اليونانية والثانية الخاصية اليهودية، ثم تلك المسيحية.

الانفصال الثانى:

النهضة (فردية الغابة ومولد الذئاب)

النهضة الغربية هى أولا مولد الرأسمالية والاستعمار فى آن واحد، وراء قناع التجدد الفلسفى للازدواجية الفلسفية الإغريقية وخاصة لأفلاطون، من خلال الإصلاح الدينى، ذلك الذى قام به لوثر وكالفين، والذى اقتلع نصف أوروبا من الكنيسة الرومانية الإمبريالية. ولقد تم ذلك من خلال انفصال أوروبا التى تصورت نفسها مركز العالم، ووحدها القادرة على وضع القيم؛ لأنها تدعى لنفسها كل الاكتشافات العلمية والتكنيكية فى سائر أنحاء العالم: البوصلة ورافعة الدفة التى جعلت من الممكن الإبحار فى مياه البحار البعيدة وبالتالى تحقيق اكتشافات كبيرة، والبارود الذى سمح بأن تتحول الاكتشافات إلى غزوات، والمطبعة التى جعلت الثقافة ديمقراطية وحققت البعث لليونان وروما.

ولكن كل ذلك جاء من الصين ومن الهند، عبر طريق الحرير، ومن انتشار الإسلام. الهند الغربية، أى أمريكا، تدفق منها الذهب والفضة مما جعل التوسع العملاق فى الاقتصاد التجارى ممكنا.

وارتفعت فى القرن السادس عشر كمية الذهب والفضة التى تتداول فى أوروبا بنسبة ٨٠٠ ٪، وذلك بفضل الأعداد الكبيرة من الهنود الذين ماتوا أثناء العمل الإجبارى فى مناجم المعادن النفيسة .

وأهم من ذلك تدفقت المصادر الغذائية القادمة من أمريكا إلى أوروبا، والتى وضعت حدا للمجاعات التى شهدتها العصور الوسطى، مما أسفر عن زيادة المواليد فى أوروبا زيادة لم يسبق لها مثيل : فرناند بروديل، وصف فى عام ١٩٨٢، وصول البطاطس والذرة المكسيكى إلى أوروبا بالزراعات المعجزة : وذكر بروديل أنه خلال مائتى عام تم استبدال ٤٠٪ من استهلاك الحبوب بالبطاطس. وشهدت أيرلندا، حيث تمت زراعتها لأول مرة، زيادة عدد سكانها ثلاثة أضعاف .

وعندما بدأ الأوروبيون استيراد القطن الأمريكى طويل التيلة، ازدهرت صناعة النسيج الأوروبى بشكل لم يسبق له مثيل على حساب النساجين الهنود، وفى أمريكا على حساب العبيد السود الذين تم نقلهم إليها من أجل زراعته .

إن أسطورة النهضة الأوروبية، والتى تعنى مولد وحدانية السوق وعبادة المال، وبداية انقسام العالم من خلال النهب والاستعمار، وتزايد القطبية حتى فى أوروبا، وبداية هؤلاء الذين يملكون والذين لا يملكون، هذه الأسطورة تخفى وراءها اضمحلال الإنسان .

الاضمحلال، هو تحلل الرغبة الجماعية من أجل الفرد . وما يميز الاضمحلال الرومانى، هو التناقض المتزايد بين ثراء المساكن الخاصة وتفسخ المعابد .

مـولد الـذئاب وهيـمنة الذهـب. أكـبـر الشـهـود: شـيكسـپـيـر وسيرڤانتس.

تكشّف هذا الاضمحلال منذ بدايته عن طريق عباقرة هذه الفترة .

ـ لم يفهم أحد وصف عملية تحلل عالمنا فى نهاية القرن العشرين مثلما فهمه شيكسپير .

ـ ولم يستطع أحد أن يحدد الطريق الوحيد لإفشال الموت كما فعل سيرڤانتيس .

عام ١٦٠٥ : الملك لير كشف تحلل العالم بقوله : «عندما يقود المخبولون العميان» . «العالم الكبير سيستنزف نفسه حتى الفناء» . «الملك لير ليس إلا قطعة من الأطلال» . وهو يسأل السؤال الحاسم : «من يستطيع أن يقول لى من أكون؟» .

«أنا أعرف من أكون» ، أجاب دون كيشوت فى نفس هذا العام ١٦٠٥ . إنه هو أيضا يعيش فى أعماق الحزن . ولكنه يسكنه الله . وله هدف ، معنى . إنه يعرف أن عالم القطعان ليس حقيقيا .

إن عالم سيرڤانتس وشيكسپير هو عالمنا : لقد عاشا مولده ، ونحن نعيش المعاناة .

إن ما نطلق عليه النهضة، ما هو إلا رفض لكل القيم المطلقة، والملحق بها إنما هى: فردية الغابة.

النهضة هى مولد الذئاب.

إن ما يصلح لأن نطلق عليه الواقع ما هو إلا حُلم وكذب. كان الأجدر بنا أن نقول: اغتراب الإنسان.

كان شيكسپير وسيرڤانتس هما أول من صاح: «الملك عار!» إن واقعك هو واقع غير حقيقي: وليس له معنى لأنه ليس لديك هدف!

والمال يجعل من كل القيم، قيما تجارية: «أنت تساوى ما تملك، وتملك بقدر ما تساوى». «يمكن للشراء أن يملأ الكثير من التجاويف» (دون كيشوت).

وهكذا ندد سيرڤانتس بالتخريب المعنوى الذى نجم عن انتصار الرأسمالية فى عصر النهضة بنفس الصفاء ونفس العنف الذى وصفه شيكسپير عندما قال: «المفكر المغرور يسجد أمام الغبى المطرز بالذهب».

«ماذا أرى هناك؟ إنه الذهب، هذا المعدن الأصفر اللامع والنفيس! القليل من هذا الذهب يكفى ليحول الأسود إلى أبيض، القبيح إلى جميل، الظالم إلى عادل، الوضيع إلى نبيل، المسنّ إلى شاب، الجبان إلى شجاع. إنه سيُبعد عن منابركم قساوستكم وخدامكم، ويسلب الوسادة من عند سرير المريض. هذا المال الذهبى سيلحم ويقطع التعهدات، سيبارك الملعون، وسيجعل المجذوم يعبد، وسيضع اللصوص بعد منحهم الألقاب والاحترام والثناء، على منصة النواب، وهو ما سيجعل الأرملة الحزينة تقررالزواج مرة أخرى. وسيحول مستشفى لمرضى القرحة التى تبدو كئيبة وتثير

الغثيان، إلى رائحة عطرة، إلى الأمام! أيها العفار الملعون، المبتذل لكل أنواع البشر، الذين يخلقون الخلافات بين شعوب الدول، أريد أن أعيد لك مكانتك فى الطبيعة».

عندما قرأ كارل ماركس هذا الجزء من شيكسپير رأى فيه أول إدراك لتغرب الإنسان من خلال ما أسماه فى كتابه رأس المال: «السلعة التجارية، هذا المعبود الوثنى».

وفى نقد سيرڤانتس لجوهر الرأسمالية الوليدة، نجد مفتاح موضوع السحرة. كانت مهمة دون كيشوث أن يفك سحر العالم المسحور. أو بلغة أخرى يمكن القول: إنه يقوم بفك غربة العالم المغترب.

وكل ما تصور أنه ملحمة غامضة، بدت له حقيقة مظلمة للاستعمار. وفى كتاب الرجل الغيور من أستريمادور، يسمى الهند: «ملجأ ومأوى كل اليائسين من إسپانيا، كنيسة المحطمين، السلوك الآمن للمجرمين.. الإحباط للكثيرين والعلاج للبعض». (بلياد ص ١٣٠١).

نفس هذا السيرڤانتس طحن فى نهاية المطاف: المناضل القديم من ليبانتى، تحول فى أشبيلية إلى بيروقراطى غير معروف فى الترسانة الحربية حيث يقومون بتموين الأرمادا التى لا تُقهر، أصبح منذ ذلك الحين أحد هؤلاء المحبطين فى إسپانيا وقدم طلب عمل إلى الملك فيليپ الثانى. «إننى أرجو من صاحب السمو أن يمنحنى الفضل فى منصب خال فى الهند.. منصب محاسب فى نوفل جريناد، أو فى

إقليم سوكونوسكو أو فى جواتيمالا ، أو فى سجون قرطاجة ، أو فى إدارة لاباز» .

ويعبر دون كيشوت عن خيبة أمل سيرفانتس المأساوية بسبب «تحول أحلامه» ، فيقول فى حديثه عن السلاح والكتابة ، معبرا عن حزنه : «لامتهانه مهنة الفارس فيجوب البلاد فى عهد قمىء مثل ذلك العهد الذى نعيشه اليوم» .

انتقاده لهذا القرن كان صارما مثلما كان انتقاد شيكسپير له .

الإنسان عندما يساوره القلق لكى يسيطر على الطبيعة من خلال العلم والتكنيك ، فإنه يصبح شيئا ضمن الأشياء : «كل هذا العالم مكون من أشياء مصنعة ومن آلات» . وخاصة آلات الطحن : الطواحين كانت عبارة عن تشبيه لذلك . مثل السلسلة فى ذلك التشبيه الآخر فى فيلم : الحياة العصرية لشابلن .

من آلية العالم وتحطيم الإنسان ، الذى تجرد من كل أبعاده الإلهية ، استطاع دون كيشوت أن يتوصل إلى الجذور : وهى السلطة المطلقة للمال الذى أصبح سيد الإنسان ومجتمعه بدلا من الله . «أفضل أسس العالم هو المال» . «المصلحة تستطيع عمل كل شىء» .

تدفق الذهب من أمريكا ، أغرق إسپانيا . وأصبح المال هو محرك كل الأعمال . فهو الذى يمنح السلطة وهو الذى يفسد : «ليس هناك منصب ــ مهما كان رفيع الشأن ــ لا يمكن الوصول إليه بدون رشوة» .

فساد القيادات مسألة عامة: «اجمع كل المسدسات.. كل الحكام الجدد لديهم نفس الرغبة».

كبار الإقطاعيين، المتكاسلين الذين يملكون الأراضى، يعيشون على عمل الآخرين.

هذا هو العالم الذى تحول إلى حيوانات فى غابة الرأسمالية، ومن هذا النظام القائم على المال والمصلحة الشخصية، ولد عصر النهضة.

لعن دون كيشوت هذه الروح الجديدة التى تغلغلت حتى داخل المخلّص سانشو بانسا: «تمسك بمصلحتك الشخصية.. تبّا لك أيها الرجل الذى تتمسك بالحيوان أكثر من الإنسان».

هكذا ولد عالمنا هذا.

عاش كل من شيكسبير وسيرڤانتس بداية المسرحية عندما كانت تتحدى قوانين اللعبة.

اليوم، مع بيكيت ومسرح العبث فى «فى انتظار جودو» تعرض نهاية المسرحية.

***

هكذا ولد ما أسمته كتب التاريخ العصور الحديثة، والتى تميزت برفض الوحدة الإنسانية بسبب هيمنة الغرب، وكراهية أو تدمير الثقافات الأخرى.

إن الثقافة الغربية التى تسود منذ خمسة قرون وإلى الآن، متصورة

أنها الوحيدة التى تطرح القيم، والوحيدة التى تقف فى وسط المبادرة التاريخية، هذه الثقافة قامت أساسا على ثلاثة افتراضات للحداثة :

- فى العلاقات بالآخرين، افتراض آدم سميث : «إذا كان كل شخص تقوده مصلحته الشخصية، فإنه يساهم فى الرخاء العام».
- فى العلاقات مع الطبيعة، افتراض ديكارت : «يجعل منا أسيادا ومالكى الطبيعة».
- فى العلاقات مع المستقبل، افتراض فاوست. كاتب قصة فاوست الأولى، الكاتب المسرحى الإنجليزى مارلو (١٥٦٣ـ ١٥٩٣) كتب يقول : «أيها الإنسان، كن إلها بعقلك الجبار، والسيد والمهيمن على كل العناصر».

المسيرة التاريخية لتلك الحضارة الغربية، التى تأسست على تلك الافتراضات الثلاثة التى رأى البعض نهاية التاريخ فى انتصارهم، عبرت عن نفسها فى الفلسفات الإنجليزية والفرنسية والألمانية فى تلك الفترة من التاريخ :

(أ) من افتراض آدم سميث وحتى وحدانية السوق : الفلسفة الإنجليزية.

(ب) من افتراض ديكارت حتى التقنية : الفلسفة الفرنسية.

(ج) من افتراض فاوست حتى عالم اللامعنى : الفلسفة الألمانية.

(أ) من آدم سميث إلى وحدانية السوق
(الفلسفة الإنجليزية)

شهدت إنجلترا مولد أول أشكال الرأسمالية، وبداية إدراك أسسها الإنسانية.

تطورت الثورة الصناعية لتصل إلى هذا الشكل على مرحلتين: من عام ١٥٧٠ إلى عام ١٦٤٠ حيث تحددت خطوطها العريضة، ومن القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر حيث انتشرت كل نتائجها.

في المرحلة الأولى، كان التوسع الكبير للتجارة الكبرى في أوروبا، الذي تم بفضل تدفق الذهب والفضة بعد غزو ونهب أمريكا في عام ١٤٩٢، هو السبب في أن يتحول اقتصاد الزراعة إلى اقتصاد صناعة بطريقة عشوائية وخاصة في إنجلترا، حيث استهدف هذا التحول زيادة تجارة الأصواف مع الفلامنك، المركز الاقتصادي والتجاري الذي تعرض لعملية تطور كاملة عبر معارض فرنسا وحتى المدن الكبرى في إيطاليا.

أما الفلاحون الإنجليز البسطاء، الذين كانوا يمارسون الزراعات الغذائية، فقد طردوا من أراضيهم بناء على قانون إغلاق الأراضي

لصالح الملاك التجاريين الكبار الذين ضاعفوا حجم أراضيهم المغلقة من أجل تحويلها إلى مراع تربى فيها أعداد كبيرة من قطعان الخراف، فقاموا بترحيل الفلاحين من أراضيهم الصغيرة، وبمنعهم من رعى خرافهم المعدودة فى المراعى العامة الكبرى التى كانت مفتوحة لهم حتى ذلك الحين ثم تحولت إلى مراع مغلقة.

حقق تصدير الصوف طفرة هائلة: ففى عام ١٥٧٠ كان تصدير النسيج يمثل ٨٠٪ من إجمالى الصادرات الإنجليزية، ليس فقط من خلال بيع الصوف ولكن من بيع النسيج الصناعى الذى طحن الأيدى العاملة الرخيصة، وهى أيدى الفلاحين الذى طردوا من أراضيهم واضطروا للعمل فيه. . «الخراف أكلت الإنسان» كتب توماس مور فى كتابه «المدينة الفاضلة»، فى عام ١٥١٦، فى عصر كان هناك ٧٠ ألف شحاذ يجوبون طرقات لندن، وانتشرت العصابات فى سائر أنحاء البلاد تضم الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم فتحولوا إلى متشردين.

فجّرت بدايات الرأسمالية حركات تمرد، وحولت الفلاحين المطرودين من أراضيهم إلى بروليتاريا بائسة.

وفى عام ١٥٤٩ أصبح فى مدينة نورويتش، (مركز صناعة النسيج)، عشرون ألف فلاح عاطل، فهاجموا المدينة للمطالبة بوضع حد لقانون حظر الأراضى، الذى طرد الكثيرين من أراضيهم، والعودة إلى نظام الأراضى المشتركة التى كانت تمنحهم الحياة.

الملك، (إدوارد السادس بن الملك هنرى الثامن) أرسل ضدهم

جيشا من ١٥ ألف مرتزق إيطالى وألمانى قام بمذبحة راح ضحيتها ٣٥٠٠ فلاح، وشنق زعماءهم، الإخوان كيت.

ازدهر النظام سريعا بسبب الاستغلال الاستعمارى: ففى عام ١٥٩١ بدأت أول حملة إنجليزية إلى الهند: وفى عام ١٦٠٠ تأسست الشركة الإنجليزية للهند الغربية (وبعدها فى عامى ١٦٠٢ و ١٦٦٤ تبعت كل من هولندا وفرنسا إنجلترا).

وفى المستعمرات فرض نظام الملكية الخاصة بوسائل وحشية، على النمط الرأسمالى، مما أدى إلى انتشار البؤس على أوسع نطاق.

ولقد نص التقرير الرسمى لشركة الهند الذى صدر فى عام ١٧٧٠ على ما يلى: «لقد هلك أكثر من ثلث سكان إقليم بورنيا الذى كان إقليما غنيا، بسبب البؤس، كما أن الفقر فى المناطق الأخرى ليس أقل قسوة».

وعندما تولت الدولة الإنجليزية إدارة الشركة، قدم الحاكم العام فى الهند، لورد كورنواليس، كشف حساب للموقف جاء فيه: «أستطيع أن أعلن بكل تأكيد أن ثلث أراضى الشركة فى هندوستان أصبحت الآن عبارة عن غابة يعيش فيها حيوانات متوحشة». والقوانين العقارية الدائمة التى قام بسنها فى عام ١٧٩٣ للبنجال وبيهار، والتى تطوق الهند وتقسمها إلى ممتلكات خاصة وتحرم الفلاحين الفقراء من أراضيهم المشتركة حسب تقاليدهم، كانت هى السبب الأول فى المجاعة الهندية الأولى: حيث لقى مليون شخص حتفه ما بين عامى ١٨٠٠ و١٨٢٥، ثم خمسة ملايين آخرين ماتوا فى الفترة ما بين

عامى ١٨٥٠ و١٨٧٥ ، ثم مات ١٥ مليونا فى الفترة ما بين ١٨٧٥ و ١٩٠٠ . وهكذا اغتيل الاقتصاد الزراعى الأساسى، ثم حرفة النسيج الهندى. فكانت اللعبة التى يلعبها الإنجليز باسم الحرية، هى تحويل الهند إلى دولة مستوردة للأقمشة من مانشستر، وهو ما حدث بالفعل. ففى الفترة ما بين عامى ١٨١٤ و ١٨٣٤ ارتفع استيراد الهند للنسيج من مانشستر من مليون إلى ٥١ مليون دولار.

ومن البندقية، التى كانت على وشك أن تبنى إمبراطوريتها، تلقت الطبقة الحاكمة الإنجليزية الوليدة، الأيديولوچية الضرورية التى تبرر تلك الأعمال. فلقد صرح ديزرائيلى آخر رئيس وزراء إنجليزى فى القرن التاسع عشر: «الهدف الرئيسى لزعماء حزب المحافظين: هو جعل إنجلترا دولة يحكمها القلة على مثال البندقية»، أى تضم مجلسا كبيرا ومجلس شيوخ، يتحكمان فى زعيم منتخب.

ولقد ندد كبار الشعراء فى تلك الفترة أمثال شيكسبير فى مسرحيته تاجر البندقية (شايلوك) أو فى مسرحية عطيل، (مراكشى البندقية)، الأخلاقيات السياسية فى البندقية (إذ تعكس شخصية ياجو فى مسرحية عطيل تلك الأخلاق أكثر من أى شىء آخر). ولكن حزب البندقية لم يكف عن الاستيلاء على السلطة بلا رحمة.

وكانت هناك استمرارية سياسية متكاملة بين إمبراطورية البندقية والإمبراطورية الإنجليزية، فهما تأسستا على نفس الأيديولوچية القادمة من أرسطو والقديس بولس. شركة البندقية، التى كونها الكونت ليستر، مؤسس الحركة البيوريتانية، فتحت لإنجلترا طرقا

تجارية جديدة تؤدى إلى الشام وآسيا: وفى عام ١٥٨١ تكونت شركة أخرى: الشركة التركية. ومن خلال اندماجها مع شركة الشام أصبح اسمها شركة الهند الشرقية التى كان أول حاكم لها هو توماس سميث؛ طالب فى جامعة أرسطو فى مدينة بادوا (١٦٠٠).

هذا التأثير تضافر مع تأثير القديس بولس السياسى، والذى ظهر بوضوح مع القديس توماس داكين الذى عرف كيف يعمّد أرسطو، كما ظهر أيضا مع لوثر.

وجد لوثر فى القديس بولس الأيديولوچية التى ترفع عن الإنسان أى مسئولية، وذلك عن طريق المباركة الخارجية، وإيجاد المبررات فى العقيدة، والاستمرارية فى فكر بولس بين العهد القديم والجديد. هذه الأيديولوچية أسست نضالها المناهض للثورة ضد توماس مونزير، زاعمة أنها تمتلك قوة القطيعة التى ذابت فى يسوع، كما بررت الاستعمار الدموى للپيوريتانيين فى ماى فلاور بالمذابح الأسطورية ليشوع فى كنعان، وفعلت نفس الشىء ضد الهنود.

الپيوريتانيون المهاجرون إلى أمريكا تشبهوا بالعبرانيين الذين هربوا من استعباد فرعون لهم (ملك إنجلترا) للوصول إلى أرض كنعان الجديدة، التى هى أمريكا. وعندما قاموا بطرد الهنود والاستيلاء على أراضيهم، استحضروا المثل الذى ذكر فى العهد القديم عن يشوع والإبادة المقدسة (حريم): «كتب أحدهم قائلا، إنه لمن الواضح أن الله دعا المستعمرين إلى الحرب. الهنود، مثل قبائل العماليق القديمة والفلسطينيين الذين تضامنوا مع آخرين ضد إسرائيل». (ترومان

نيلسون: البيوريتانيون من ماساشوستس: من مصر إلى أرض الميعاد ـ اليهودية. المجلد السادس عشر، رقم ٢، ١٩٦٧ . الأرض).

كما قام إدموند سبنسر فى كتابه «الملكة الأسطورة» (١٥٩٠)، بطرح فكرة المصير الإمپريالى لإنجلترا، الشعب الذى «اختاره الله».

إن النظام الإنجليزى ما هو إلا تكرار لنظام البندقية: فهو يسعى باستمرار إلى تجنب الملكية المطلقة ليصبح الملك زعيما منتخبا يمثل الطبقة الحاكمة التجارية ويطبق سياساتها.

هذا النظام يسود منذ انتصار الرأسمالية فى عصر النهضة، وحتى منتصف القرن العشرين (أى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ومؤتمر بريتون وودز، الذى كان نقطة التحول للهيمنة على العالم الرأسمالى من إنجلترا إلى الولايات المتحدة من خلال سيادة الدولار والذرة).

هذه الإمبراطورية حكمت العالم نحو خمسة قرون. وكانت أكثر استمرارية بقوتها كلها من الإمبراطورية الرومانية، أو حتى الإمبراطوريات قصيرة الأجل التى كونها ناپليون أو هتلر. وأنجبت ما أطلق عليه جرامتشى Gramsci مثقفيها العضويين ليشكلوا أيديولوچية، أى المبرر شبه الفلسفى للنظام الحاكم.

كل هؤلاء الذين أطلق عليهم فى الكتب الرسمية، الفلاسفة الإنجليز، كانوا فى البداية سياسيين ارتبطوا بشدة بالاقتصاد الإمپريالى لعصرهم، وذلك بعدما لم يعد هناك ضرورة لبقائهم كأصحاب نظريات مرتزقة بشركة الهند الشرقية.

الأب المؤسس لتلك المدرسة، والذى نقدمه بكل امتنان فى التاريخ الرسمى كرائد للعلوم الحديثة، هو فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦).

وفى كتابه نوفوم أورجانوم (١٦٢٠) يسترجع بيكون الأفكار الاساسية لساربى Sarpi فيلسوف البندقية: فن التفكير الجيد، حيث الفكرة المحورية مأخوذة مباشرة من أرسطو: الحواس هى المصدر الوحيد للإدراك.

لقد لعب فرانسيس بيكون دورا مهما فى السياسة الإنجليزية: نائبا فى البرلمان منذ عام ١٥٨٤، ثم أصبح وزيراً للمالية فى عام ١٦١٨ (وبعد تورطه فى فضيحة فساد اضطر إلى الاستقالة فى عام ١٦٢١). لم يستبعد بيكون من أرسطو إلا ما يمكن أن يخفف من اتجاهه الواقعى: فلقد استبعد الأسباب النهائية ولم يحتفظ إلا بالتجارب ذات الفاعلية.

إن الفلسفة الحقيقية لا تستطيع أن يكون لها إلا مصلحة عملية (بمعنى استخدام التكنيك)، وانطلاقا من البديهية الأساسية لبيكون: «الإنسان لا يفهم إلا ما يرصده»، أصبحت هى المقولة التى تقود كل الإمبريالية الإنجليزية فيما بعد.

رصد الواقع، أى الوضع القائم، قاد خليفته المقرب وصديقه هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) إلى أن يستخلص من مظاهر المجتمع الإنجليزى فى ذلك العصر، نفس الاستنتاج القاتم الذى استخلصه أرسطو من مجتمع أثينا فى عصره، ولكن فى وضع تاريخى أكثر مأساوية: انتصار الرأسمالية والاستعمار.

وعلى اعتبار أن قوانين الرأسمالية تنشأ مثل قوانين الطبيعة، توصل هوبز في كتابه عناصر القانون السياسى والطبيعي (١٦٤٠) إلى مبدإ الفردية المتوحشة للاقتصاد التجارى الذى يتنافس بلا رحمة. وذكر فى الاستنتاج النهائى أن الوضع الطبيعى للمجتمع هو الحرب؛ الجميع ضد الجميع.

وفى رؤيته للانهيار الذى أصاب الديمقراطية فى أثينا واعتباره بمثابة إنذار، يقدر هوبز أن عليه، من أجل أن يفرض الوحدة فى تلك الغابة حيث النفوس فى حالة مجابهة، أن يطبق الاستبدادية المطلقة. تلك هى الفكرة الرئيسية فى كتابه ليفياثان (1654) Leviathian.

وهكذا اكتشف هوبز منطق الليبرالية الذى سيثبت خلال القرون الثلاثة التالية: إنه نظام، بدأ عبر غابة الفردية التى تتنافس، بين الأفراد أو الدول، وهو ما يجعل الأقوى يلتهم الأضعف، وانتهى بتطبيق الديكتاتورية المطلقة لشخص واحد. (وهو ما وضح ـ على سبيل المثال ـ فى انتقال جمهورية فايمر الليبرالية إلى ديكتاتورية هتلر).

لقد خطط هوبز المسيرة الفردية المتنافسة وهويتها النهائية مع ما بدا أنه النقيض منها، ولكنه فى الحقيقة ما هو إلا نهاية منطقه الداخلى: الديكتاتورية الشمولية، حتى ولو اختبأت وراء أشكال سياسية، ولكنها تظل اقتصاديا تتمتع بنفس الفاعلية والطغيان، وبنظام الهيمنة العالمية فى شكل وحدانية السوق.

أما چون لوك، الذى خلفه، (١٦٣٢ـ ١٧٠٤) فبالنسبة له كانت العدالة هى ـ أساسا ـ حماية الملكية، ولقد أكمل تطوير المذهب فى

كتابه بحث حول المدارك الإنسانية، الذى بدأ العمل فيه فى عام ١٦٧١ ونشر فى عام ١٦٨٣ .

فيما بين هذين التاريخين، خاض لوك كل التجارب التى يمكن أن تكون فى فى حياة رجل اقتصاد وسياسة : فى البداية كان مستشار حافظ الأختام سومرز، ثم وزير المالية، وفى عام ١٦٩٨ عين عضوا فى مجلس التجارة والزراعة. فى عام ١٦٩٤ تأسس بنك إنجلترا تحت إدارة وزير المالية الذى أصبح فيما بعد، سفيرا فى البندقية.

وهكذا أصبح لوك مدير الدعاية فى البنك بعدما أشاد بالربا، وهى العمليات الضرورية للدول التى قامت على تراكم المال. وهكذا صارت المضاربات تعمل فى حرية مثل الدفاع عن الملكية : الإنسان يساوى ما يكسب، العقد الاجتماعى تأسس على حق الدخول فى البنك الذى تحول إلى صالة قمار من أجل أملاكه.

وبدأ لوك، الذى تعين كوميسارا ملكيا للتجارة والمستعمرات، يكافح بشراهة من أجل وضع حدود لحقوق المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا (والتى كانت قد منحت لهم من خلال ميثاق ملكى) وذلك كى يصير اقتصادهم خاضعا بشدة لاقتصاد الدولة الأم، التى تمنعهم من تصنيع بعض أنواع السلع.

هذه السياسة لا تقوم إلا على تصور حيوانى للإنسان، تقوده مصلحته وحدها. أما الروح فليس لها أى مكان : ولذا تحولت إلى خواء، خالية فى انتظار أن تمتلئ بالتصورات الحساسة التى تكون الواقع الوحيد. وحتى المتغير الدينى الذى قدمه الأسقف بيركلى

(١٦٨٥ـ ١٧٥٣) لا يغير شيئا فى الفكر الأساسى للدور السلبى الذى تقوم به الروح فى فلسفة الذات تلك : نحن لا نملك أن نعرف إلا مداركنا الحسية (أن نكون هو أن ندرك : .esse est percipi وتبقى الأحاسيس مجرد معطيات، ليس عبر المادة، ولكن، حسب بيركلى، من خلال الله، ودائما من خلال التلقى السلبى، بلا فعل إنسانى).

وعندما كان لايبينيز Leibiniz يعيش فى إنجلترا حاميا للملكة آن، حاول بلا جدوى، أن يكافح ضد هذا الفكر التجريبى وفلسفة السوليپسزم - solipsisme . لا شىء يجرى خارج النفس وأن ما نراه ما هو إلا خيالات ـ (هذا الاسم النبيل، الفلسفى، للأنانية). وفى بحثه «حول فكرة القانون والعدالة» (١٦٩٣) شرح الحب فقال: «عندما تفضل سعادة الآخر على سعادتك». لقد كانت كل فلسفته، التى ترى كل جزئية من الواقع، هى واقعا حيا وعاملا ومرتبطا بكل الكائنات الأخرى المتواجدة داخله.

وحتى نهاية العالم، تلك الفلسفة كانت على النقيض تماما من ذلك الفكر التجريبى الإيجابى لمجتمع تجارى وإمپريالى.

وفى إنجلترا استعاد جوناثان سويفت، أفكار لايبينيز فيما يختص بنقد الفلسفة السوليپسيزم التجريبية التى سخر منها فى بحث حول الجنون، وفى عام ١٦٩٦ فى كتابه حكاية برميل. وفى قصته رحلات جاليفر، وصف المجتمع الإنجليزى بسخرية لاذعة. ولكن بعد وفاة الملكة آن فى عام ١٧١٤، تم استبعاد لايبينيز من القصر، وهرب سويفت إلى أيرلندا، موطنه الأصلى، حيث تولى فى عام ١٧٢٠ منصب عميد

كاتدرائية القديس باتريك فى دبلن ، (حيث قامت الملكة آن بتعيينه) . ومن هناك أصبح الزعيم السياسى للنضال الأيرلندى من أجل حرية الإنسان ضد التصحر الروحى والفلسفة التجريبية الإنجليزية والآلية الديكارتية ، ومن أجل السيادة الوطنية ضد السيطرة الإنجليزية .

بعد هزيمة هؤلاء الذين يريدون الدفاع عن الإنسان كى لا تدمره التجريبية (والليبرالية الاقتصادية التى أدت إليها) ، استطاع النظام المدمر للإنسانية معاودة طريقه .

فى الفترة ما بين عامى ١٧٢١ و١٧٤٢ ، كان المثل الأعلى فى إنجلترا هو إدموند وولپول Edmond Walpole . بعد أن سجن وولپول فى قلعة لندن عام ١٧١٢ بتهمة الفساد، أصبح وزير المالية فى عام ١٧١٥ .

وتورط فى قضية بحار الجنوب (حيث قام بنك إنجلترا بتغطية مضاربات قامت بها شركة بحار الجنوب التى قادت إلى انهيارها الكامل فى عام ١٧٢٠) .

وعلى مدى عشرين عاما (من ١٧٢١ إلى ١٧٤٢) أصبح إدموند وولپول السيد الحقيقى فى إنجلترا، فقام بجمع واختلاس ثروة هائلة عن طريق المضاربة، والسلطة المطلقة والتهديد. وكان يستطيع أن يعلن فى مجلس النواب بدون أن يجرؤ أحد على معارضته كيف أنه: «يعرف كم يساوى ضمير كل واحد من أعضاء هذا المجلس الموقرين».

وكان لديه خبراء فى وضع النظريات على نفس مستواه . ففى عام

١٧١٤ كان هناك ماندفيل (١٦٧٠ـ ١٧٣٣) : الذى أيد فى كتابه أسطورة النحل، (١٧١٤) أن الخطايا الخاصة تخدم الخير العام.

وعلى الجانب الفلسفى، قام ديڤيد هيوم (١٧١١ـ ١٧٧٦) الذى عمل قاضيا ودپلوماسيا، وكان سكرتير السفير البريطانى فى پاريس فى عام ١٧٦٣، ووزير دولة عند عودته إلى لندن، قام بتكرار النغمة التقليدية لأسلافه: لا شىء يوجد خارج التجربة العقلانية، وهو ما يسمح له بتقليص «الأنا» الإنسانية إلى مجموعة أحاسيس، وتلك الأحاسيس لا يربطها بعضها ببعض أى روابط لها أسباب ونتائج، ولكن مجرد تسلسل من الترابطات المألوفة. وانطلاقا من فكرة الذات للإنسان، فإن مفهوم المسئولية والعمل الأخلاقى لا يحمل أى معنى. وقدم هيوم فى كتابه حوارات حول الدين الطبيعى (١٧٧٧) الاستنتاج الذى توصل إليه فى كتابه بحث حول المدارك الإنسانية (١٧٤٨)، الذى أرجع كل الأخلاقيات، مثلما فعل المفكرون الإنجليز الآخرون، إلى العدالة (التى بالنسبة لهم تشتمل على الاحترام والدفاع عن الملكية) وبشكل أكثر عمومية (مثل هؤلاء الذين يستبعدون كل سمو للعمل بالمقارنة مع الإدراك السلبى للذات) إلى المنفعة وإرضاء النفس والآخرين.

جيريمى بنتام، (١٧٤٨ـ١٨٣٢) هو أكبر مثل على ذلك الخط. فبينما يؤمن هو أيضا باستيعاب النظام الرأسمالى فى النظام الطبيعى، فإنه يعدّ الإنسان نوعا من أنواع الحيوانات التى لا تتحرك إلا من أجل مصلحتها الشخصية بحثا عن لذتها ومحاولة لاستبعاد الألم. لذا فهو يتخيل أن للذة حسابات لن تتحقق إلا إذا كان هناك قاسم مشترك لقياس حجمها. هذا القاسم المشترك هو فى نظر بنتام، ثمن الأشياء

التى تمنحنا تلك اللذة أو تمنع الألم. والثمن يتحدد فى السوق. لذا يصبح المال هو القاسم المشترك، هو أداة القياس. هذا هو المبدأ الأساسى للأعمال الفلسفية لبنتام. ولقد قام بتوجيه كل تأملاته ابتداء من كتابه مقدمة لمبادئ الأخلاق والتشريع (١٧٨٩) إلى استنتاجاته القانونية حول العقلانية والعقاب (١٨٣٠) حيث يجب على العدالة، فى نظام تنافسى، أن تطالب بفرض عقوبات اقتصادية نسبية على الجريمة، بناء على نفس الحسابات الخاصة بالألم واللذة.

وهكذا تعود أسس عصر الكم إلى ذلك النظام حيث السوق هو المنظم الوحيد للعلاقات الإنسانية، حيث يتقلص الإنسان (هومو إيكونوميكوس) ليصبح مجرد منتج ومستهلك ولا يعمل إلا من منطلق مصلحته وحدها. إنه الإنسان الذى أطلق عليه ماركيوز بعد ثلاثمائة عام اسم: «الإنسان ذوالبعد الواحد».

وبتلك الطريقة لم يفرق بين الإنسان والحيوان حيث إن كليهما لا يحركه إلا المصلحة، والغريزة لتحقيق اللذة أو الخوف من الألم. وهكذا يلخص تفكيره فى صيغة واحدة هى:« فرضت الطبيعة ألا يقود الإنسانية إلا سيدان فقط هما: اللذة والألم».

أما اللورد شيلبورن، أحد خلفاء ولپول على رأس الحكومة فى إنجلترا عام ١٧٦٣، فلقد اعتبر بنتام هو «نيوتن العلوم الإنسانية».

بالنسبة لشيلبورن، الذى رفض، بمساعدة شركة الهند وبنك بارينج، تقديم أى تنازلات إلى أيرلندا وأمريكا التى استقلت من

الاستعمار الإنجليزى، وكان خطه الأساسى للسياسة هو: الحرية الكاملة للتجارة.

فى ٢٧ من يناير عام ١٧٨٣، طالب شيلبورن مجلس اللوردات بالتصديق على معاهدة باريس التى تضع حدا للاستعمار الأمريكى، وأوضح أنهم يستطيعون تدمير أمريكا الدولة الوليدة، وإعادتها إلى الحظيرة البريطانية عن طريق لعبة الحرية التجارية وقال: «المنافسة هى أساس حرية التبادل التجارى المقدسة، ولا يجب أن نستهدف إلا التبادل التجارى الحر على الأرض، والمزيد من الصناعات ومن رءوس الأموال، ومن الشركات التى لن تنافسها أى دولة تجارية فى العالم، وكلمة السر عندنا يجب أن تكون: فتح جميع الأسواق». إنها اليوم اللغة التى يستخدمها محركو الجات الأمريكيين والمسئولون فى منظمة التجارة العالمية، حيث تحركهم نفس الأهداف وهى السيطرة على العالم.

أمر شيلبورن بتوزيع كتابين، الأول لآدم سميث (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠) والثانى لإدوارد چيبون (1737-1794) Gibbon.

أما العمل الأساسى لإدوارد چيبون تاريخ اضمحلال وانهيار الإمبراطورية الرومانية، فقد كتبه ما بين عامى ١٧٧٦ و١٧٨٨ ولخصه كما يلى: «لقد وصفت انتصار الغوغاء والدين». فلقد كان چيبون عدوا لكل الروحانيات مثل معظم معاصريه فى القرن الثامن عشر، وعدّ نفسه المدافع عن الحضارة ضد الغوغاء. ومن منصبه كعضو فى البرلمان وكوميسار للتجارة والزراعة، دافع چيبون فى مذكرات مبررة (١٧٧٩) عن الاستعمار البريطانى فى مواجهة كل الانتقادات التى وجهت لسياسته بالنسبة للمستعمرات الأمريكية.

قدم شيلبورن كتابه الثانى لآدم سميث، حيث لخص سياسته الاستعمارية عندما كان رئيسا للوزارة البريطانية (١٧٨٢ـ ١٧٨٣) ورئيس اللجنة السرية لشركة الهند، فى تلك الكلمات الأساسية: **القضاء على أمريكا عن طريق حرية التجارة.**

آدم سميث، رئيس الجمارك فى إدنبره، انتهى فى عام ١٧٧٦ من كتابه: **ثروة الأمم**. وتبقى أفكاره مرتبطة بالعصر الحالى. فلقد بنى الرجل، الذى أطلق عليه أبو الاقتصاد السياسى، نظريته الخاصة بالنمو وظلت محل ثناء من خبراء حرية التبادل التجارى، وخاصة فى أمريكا فى النصف الثانى من القرن العشرين، عندما حلت محل إنجلترا فى السيطرة اقتصاديا على العالم.

المصلحة الشخصية هى المحرك الأول للاقتصاد. وفى جزئه الرابع لثروة الأمم، قام آدم سميث بصياغة الفكرة الأساسية لنظامه كما يلى: **«فى توجيه الصناعة نحو الإنتاج ذى القيمة الأكبر، فإن كل فرد يبحث عن مكسبه هو فقط، وهكذا يدرك، كمن تقوده يد خفية، هدفا لم يكن يشعر به.. وفى مواصلة البحث عن مصلحته الشخصية فهو يخدم مصلحة المجتمع بطريقة أكثر فاعلية عما إذا كان قاصدا ذلك».**

وبالتالى يصبح التدخل الواعى للدولة مضرا، ويجب تقليصه إلى أدنى حد له.

أما بالنسبة للعلاقة مع المستعمرات، فيجب ألا تكون علاقة قوة؛ لأن ذلك يرفع نفقات الدولة للاستعداد للحرب: **حرية التجارة تكفى، لأن فى ذلك المجال يبرز التفوق الإنجليزى الذى لا تضارعه فيه أى دولة أخرى.**

قد يكون شيلبورن راضيا عما توصل إليه. ولكن بنتام يرى أن ليبرالية آدم سميث غير كافية. وكتب الدفاع عن الربا حيث لام على آدم سميث أنه لم يذهب بعيدا كما يجب: كان عليه أن يقول بطريقة أكثر وضوحا إنه لا يجب فرض أى حدود على ممارسة الربا حتى لا نخنق المبادرة والحرية.

تلقى آدم سميث تلك الانتقادات بصدر رحب، ورد على بنتام قائلا: «كتابك، هو كتاب رجل متفوق».

فى الحقيقة كانت ليبرالية بنتام أكثر تطرفا وأكثر خطورة. فلم يذكر آدم سميث، فى مهام الدولة (الجيش والبحرية، الإدارة والأشغال العامة) المساعدات التى يجب أن تقدمها إلى العاطلين والمهمشين. ولقد قام بنتام بملء تلك الفراغات: فى كتابه پانوپتيكون Panopticon (1802) تصور وضع المجرمين والسكان الأصليين وأولادهم فى معسكرات عمل إجبارى حقيقية، واقترح كتابة تلك الكلمات عند مدخل المعسكر: «إذا كنت من العمال عندما كنت حرا، لما تم اقتيادك إلى هنا كعبد». وهو ما يعيد إلى الأذهان كلمات النازية على أبواب أوسفيتش: «العمل هو الحرية»!

فى عام ١٧٧٦ قال ساخرا عن إعلان الحقوق إبان استقلال المستعمرات الأمريكية: «لا تستطيع أى حكومة أن تمارس مهامها بدون أن تنتهك إحدى تلك الحقوق».

واستمر فى منطقه حتى النهاية، فكتب يقول: «إنها إحدى مبادئى القديمة: المصلحة مثل الحب، يجب أن تكون حرة».

وبعدها نشر بحث عن الشذوذ (١٧٨٥) وهو ما يتشابه مرة أخرى مع ما يحدث الآن عن الحملات المؤيدة للتحول الجنسى، فكان منطق بنتام حول حرية التبادل التجارى، يتضمن نفس تصوره عن حرية الجنس وأيضا عن حرية المضاربة.

عند وفاة بنتام فى عام ١٨٣٢، تم تحنيط جثته، وفى عام ١٩٩٠ مازالت جثته فى مكانها فى جامعة لندن.

لقد كان بنتام هو الملهم الأساسى لچيمس ميل وابنه چون ستيوارت ميل (١٨٠٦-١٨٧٣). فلقد لخص ستيورات ميل الابن فى حياته وأعماله، التطور الذى شهدته أيديولوچية الحكم المستبد والاستعمار والذى يعد النهاية الطبيعية له. فقد أصبح بصفته ابن چيمس ميل (١٧٧٣-١٨٣٦) ـ وهو أحد تلاميذ الأخلاق والاقتصاد السياسى لبنتام وهيوم والتجريبيين، المحركين والعمليين فى القرن الثامن عشر ـ وبفضل التعليم البراجماتى لوالده، طفلا معجزة. فيقال إنه درس وهو فى سن الثانية عشرة أرسطو بلغته اليونانية الأصلية. عاش ستيوارت صديق وتلميذ بنتام فى پاريس فى الفترة ما بين عامى ١٨٢٠ و١٨٢١، فى منزل شقيق بنتام، وفى عام ١٨٢٢ عندما بلغ السادسة عشرة من عمره، قدم نظرية بنتام التى كان متشبعا بها، كما كتب فى نهاية حياته فى عام ١٨٦٥، بحثا دراسيا عن أوجوست كومت والإيجابية.

بين هاتين القطبيتين لفلسفته، فى كتابه مبادئ الاقتصاد السياسى (١٨٤٥) وكتابيه الحرية (١٨٥٤) والنفعية (١٨٦١) وكتابه المنطق

المستقرئ والمستنتج (١٨٤٣) الذى يعتبر أهم ما نشره فى حياته العملية، كان عمله فى شركة الهند، يسيطر كلية على نشاطه. بدأ العمل فى الشركة فى سن الثلاثين فى عام ١٨٣٦، واستمر فيها حتى انحلت الشركة فى عام ١٨٥٨، عندما سيطرت الدولة الإنجليزية بنفسها عليها، وباتت دولة داخل الدولة كما تشهد مهام ستيوارت ميل نفسها: فلقد كان مسئولا طوال عشرين عاما، من ١٨٣٦ إلى ١٨٥٨، عن العلاقات بين الشركة والولايات الهندية.

من الغريب أن ميل، رغم اتصاله بكبار علماء الروحانيات فى العالم، أمثال هند فيداس وأوبانيشاد ومهابهاراتا، وراماياتا، لم يحاول هذا الباحث فى الاستعمار الإنجليزى أن يتعرف حتى على أفكارهم، وظل مغلقا داخل تقاليده، لا يرى العالم إلا من خلال اتحادية هيوم، ورياضيات التسلية لبنتام، واقتصاد السياسة لسميث، والإيجابية لأوجوست كومت، آخر ديانات الإنسانية.

ومؤيدا لأيديولوچية مالتوس، (باحث آخر من شركة الهند) كان هو المرجع الأساسى لكل خبير دعاية للاستعمار. لقد كان حقيقة يستحق هذا اللقب بسبب قدراته المهنية. فمن منصبه كمدير شركة الهند تدخل فى حرب الأفيون ضد الصين منذ عام ١٨٤٢، وفى عمليات قمع تمرد السيبايين فى الهند، عام ١٨٥٨.

وعندما قام چول فيرى (رئيس الجمهورية الفرنسية)، بتوضيح سياسته الاستعمارية، تمسك بآراء ستيوارت ميل، الذى كان يشاركه التركيز على الأخلاقيات الغربية والعنصرية.

في الصحيفة الرسمية للجمهورية الفرنسية (ص ١٠٥٨) يمكن أن نقرأ الخطاب الذى ألقاه چول فيرى فى ٢٨ من يوليه عام ١٨٨٥ :

«نعم، نحن لدينا سياسة استعمارية، سياسة توسع استعمارى تقوم على منهج (. .) تلك السياسة الاستعمارية تقوم على ثلاثة أسس: اقتصادية، وإنسانية، وسياسية».

١ـ الأساس الاقتصادى:

إن المستعمرات بالنسبة للدول الغنية، هى مكان لاستثمار رءوس الأموال بأفضل الأرباح. (خصص ستيوارت ميل، العبقرى، فصلا كاملا من كتابه قام فيه بشرح تلك المسألة، فقال: بالنسبة للدول القديمة والغنية، فإن الاستعمار هو أحد أفضل المشروعات التى يمكن أن تقوم بها. ففى الأزمة التى تمر بها كل الصناعات الأوروپية؛ تكوين مستعمرة هو بمثابة تأسيس سوق).

٢ـ الأساس الإنسانى:

السيد كامى پيلليتان Camille pelletan: ماذا عساها أن تكون تلك الحضارة التى نفرضها بقوة المدفع؟

چول فيرى: «ها هى المسألة يا أساتذة: إننى لا أتردد فى أن أقول إنها ليست من السياسة فى شىء، ولا من التاريخ فى شىء، إنها السياسة الميتافيزيقية. أيها السادة، يجب علينا أن نتحدث بصوت

أعلى وبحقيقة أكبر . يجب القول بدون مواربة إنه فى حقيقة الأمر للجنس المتفوق حق لدى الأجناس الأدنى.. » (ململة من ناحية المقاعد التى عند اليسار المتطرف).

چول مينيى : Jules maigne أتجرؤ على أن تقول ذلك فى الدولة التى أعلنت حقوق الإنسان؟!

دى لاجيوتيه : De la Guillotet «إنها مبرر للاستعباد وتجارة السود»! .

چول فيرى: إذا كان صاحب السعادة، مينيي على حق، وإذا كانت حقوق الإنسان كتبت من أجل السود فى إفريقيا الاستوائية، إذن فبأى نوع من الحقوق ستفرض عليهم التبادل، التجارة ؟ إنهم لا يدعونك .

٣ ـ الأساس السياسى:

. . على بلادنا أن تكون قادرة على أن تفعل كما يفعل كل الآخرين، وبما أن سياسة التوسع الاستعمارى هى المحرك العام الذى يفرض نفسه حاليا على كل القوى الأوروبية، فيجب أن يكون لنا مكان فيها .

لهذا السبب يجب أن نحصل على تونس، ولهذا السبب كان علينا أن نستولى على سايجون وكوشينشين، ولهذا السبب علينا الحصول على مدغشقر ودييجو ـ سواريز، ولهذا السبب لن نترك تلك المناطق أبدا.

***

إن الشخصية الرمزية لتلك الفلسفة الإنجليزية ، التى قامت شركة الهند والاستعمار الإنجليزى(وكل الإمبريالية التالية) بالإبقاء سرا على أهم ما لديها ، كان مالتوس مثل مثقفيها العضويين . وتكشف أعماله أسس تلك الفلسفة .

مالتوس (١٧٤٦ـ١٨٣٤) كان أستاذا للتاريخ والاقتصاد السياسى فى جامعة شركة الهند ، عندما كتب مقال حول مبدإ السكان أعلن فيه ما أطلق عليه قانونا : «إن معدل السكان يتزايد فى متوالية حسابية ، بينما يتزايد الإنتاج الأساسى فى متوالية هندسية» .

هذا القانون لم تثبته أى تجربة . بل على العكس : فإن الثورة الصناعية الإنجليزية ، التى قامت بفضل استخدام آلة النسيج التى اخترعها هارجريفز ، والمحرك الذى يعمل بالبخار الذى اخترعه وات ، ومهنة الميكانيكية لكارترايت وبدء حرية السوق ، توصلت إلى هذه النتائج : من عام ١٨٧٠ إلى ١٩١٠ زاد عدد سكان إنجلترا بنسبة ٥٨٪ بينما زاد عدد سكان الهند بنسبة ١٩٪ فقط .

وهكذا، فإن مفكر شركة الهند والليبرالية الإنجليزية، الذى سوّغ من خلال قانونه جرائم الاستعمار، هو الأب الشرعى لهؤلاء الذين ـ من خلال ربط زيادة السكان بالبطالة التى انبثقت عن النظام ـ يريدون اليوم أن يقوموا بتبرئة المذنب الحقيقى للمجاعة. فبالنسبة لمالتوس يجب إلغاء خزانة السكان الأصليين لأنها تشجع على زيادة المواليد فى الطبقات الفقيرة.

* * *

لم يكتشف مالتوس القوانين الثابتة، ولكنه قدم قوانين الرأسمالية والاستعمارية، قوانين الليبرالية الاقتصادية، أى المنافسة العنيفة: الحرب التى يشنها الجميع ضد الجميع، بلا حدود قانونية أو أخلاقية، والتى من خلالها تختفى الحيوانات والزراعات بالمليارات، والتعساء بالملايين، والمشروعات الصغيرة بالآلاف.

لقد ألهم مالتوس داروين نظريته حول الانتقاء الطبيعى. فيقول داروين، إنه تكشف لديه الحل لمشكلته فى أكتوبر عام ١٨٣٦ عندما قرأ كتاب مقال حول مبدإ السكان لـ «تى آر مالتوس».

«لقد كنت مستعدا تماما أن أقدر الصراع من أجل البقاء الذى يدور فى كل مكان، وفجأة واتتنى فكرة أنه فى تلك الظروف قد يفضل الإبقاء على بعض الشعوب والقضاء على الآخرين الأقل حظا. ونتيجة لذلك يمكن أن تتكون أنواع جديدة. وهكذا توصلت أخيرا إلى صياغة نظريتى».

وبعد أن استخلص داروين كل النتائج السياسية والعنصرية لفكرة مالتوس، كتب إلى جراهام (٢ من يوليه عام ١٨٨١) يقول: «قريبا ستقوم الأجناس ذات مستوى حضارى متفوق باستبعاد الأجناس الدنيا».

هذه العنصرية، التى هى أساس كل السياسات الاستعمارية، ظلت هى السائدة منذ ذلك الحين وحتى اليوم.

* * *

(ب) من ديكارت إلى التقنية
(الفلسفة الفرنسية)

ثانى الافتراضات التى قامت عليها الحضارة الغربية منذ عصر النهضة، يتعلق بعلاقة الإنسان بالطبيعة. وهو ما أطلق عليه: فرضية ديكارت.

فى كتابه حديث المنهج (١٦٣٧) قام ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) بصياغة هدفه كما يلى: «أن نجعل أنفسنا أسياد الطبيعة وملاكها».

عاش ديكارت فى نفس عصر هوبز، الذى تواصل معه فى أحاديث جدلية. ولكنه كان ينتمى إلى نفس العصر الذى حرم فيه الإنسان، بسبب الفردية المستوطنة فى النظام الوليد، من أبعاده الإنسانية البحتة: علاقته بالإنسان الآخر، والمجتمع والحب. علاقة الآخر بى لا تتعدى علاقة نفى أو تعدٍّ. تلك الفكرة ستكون هى السمة الدائمة فى هذه الحضارة، منذ هوبز الذى فسر مبدأ الفكرة كما أسلفنا: «الإنسان ذئب بالنسبة للإنسان» وحتى آخر نفس لموت الإنسان: «الجحيم هو كل الآخرين» فكرة صاغها أحد أبطال سارتر.

لم يعد هناك، فى منظور النظام الذى ولد فى إنجلترا، إلا الشكل الأضعف من فلسفة الذات: المواجهة بين الفرد، المحروم من أبعاده

الإنسانية البحتة ومن علاقته مع الآخرين ومع الكل، وبين طبيعة قامت التجريبية الإنجليزية بتقليصها إلى مجرد معرفة الظواهر المحسوسة، والتى نعُدها وكأنها الحقيقة المادية الوحيدة التى خضنا تجربتها، وذلك بناء على التقليد الواقعى لهوبز ولوك، أو أن تكون تلك الأحاسيس لغة يتحدث بها الله لنا، وذلك حسب الفكر اللامادى للأسقف بيركلى.

عارض ديكارت تلك التجريبية، ولكنه انطلق من نفس التصور المنعزل والفردى للإنسان، لكى يستطيع أن يتصور تواصلا آخر مع الطبيعة، بدون أن يضطر لأن يخرج من الازدواجية الأساسية لفلسفة الذات.

وحتى نستطيع أن نتتبع طريقه فإنه من الضرورى أن نتأمل نقطة الانطلاق التى بدأ منها، وهى الاقتناع الأول الذى ينبثق منه النظام ككل: «هل يجب أن أشك فى كل شىء؟ إنه من المؤكد أننى أشك: أنا أفكر إذن أنا موجود».

«أنا أفكر، إذن أنا موجود» من الصعب أن نقول كل هذا العته، فى تلك الكلمات المعدودة. ولنستبعد أربع افتراضات جاءت فى خمس كلمات قليلة.

١ـ «أنا». حتى روبنسون الرجل المحبط الذى عاش فى عزلة على جزيرة، لم يعش فى هذا الوهم الساذج.

أنا! ليس حقيقيا أنه فى البداية كان أنا. ولكن بالعكس، فلقد بدأت أتعرف على نفسى رويدا رويدا، وبصعوبة بالغة، من بين

وحدة كاملة ومشوشة من الأشياء والكائنات الحية الأخرى. إنها الانتصار الذى حققته فى طفولتى الأولى: حينما أثبت وجودى كفرد، مميز عن كل الآخرين، منفصل عنهم إن لم أكن فى مواجهة معهم. هذا التأكد الفردى مدون تاريخيا ومحدد جغرافيا: لقد ولد فى عصر النهضة فى أوروبا.

الحق يقال: إنه ابتداء من تلك الطفرة التاريخية والتى تميزت بتأسيس وبشكل عام السوق والمنافسين، أصبح كل إنسان غريما لكل إنسان آخر، أما الحرية فلقد تم إجراء تقسيم جغرافى لها كأنها ملكية: حريتى تقف حيث تبدأ حرية الآخر.

والحق يقال أيضا، إن هذا الإنسان الفردى، الذى أقام متاريس حول نفسه الأنانية، رأى أوروبا بمثابة مركز العالم: كل الآخرين مجرد غوغاء أو بدائيين.

الهنود، هل لهم روح؟ تساءل بجدية رجال الكنيسة فى القرن السادس عشر. وكانوا فى حاجة إلى سنوات وعدة باباوات من أجل اتخاذ قرار فى ذلك الشأن.

٢ - «لقد عرفت أننى كائن كل أهميته أو طبيعته أن يفكر». هذا المرض يقودنا إلى بعيد إلى سقراط وأفلاطون، كل ما لا يمكن ترجمته إلى أفكار، غير موجود. وديكارت دفع هذا التدمير إلى نهايته: الحب، الإبداع الجمالى، حتى الفعل فى حد ذاته (غير التكنيكى) أين مكانهم؟ أيمكن أن نخرج من ديكارت شيئا جماليا؟! أو أن نتعلم منه ما هو الحب؟! فى إحدى الليالى حينما يستبد بك الحزن

ستبحث فى تلك الدراسة الميكانيكية، والتى تسمى هذا الاسم الغريب، دراسة الأشواق.

٣ـ «إذن». من أى منطق استطاع التوصل إلى هذا الاستنتاج؟! ما المسافة بين فكرى وأنا؟ أو بين حبى وأنا؟ أو بين فعلى وأنا؟ وإذا كان هناك مسافة، فبأى تسلسل فكرى يمكن أن نعبرها؟ كيف يمكن إعادة تركيب أجزاء هذا الإنسان المقسم: هنا الروح وهناك الجسد، هنا أنا وهناك الآخرون؟..

٤ـ «أنا موجود». ما هو ذلك الكيان، ذلك الجوهر، تلك الطبيعة؟ التى يمكن الإمساك بها كشيء خارجى (مثل الأشياء التى تكمن خارج الأشياء الأخرى) متميز عن الفعل ذات نفسه، تماما مثل الآلة التى يمكن وصفها بالمقياس الهندسى قبل أن تعمل، وانفصالا عنها.

كيف يستطيع ديكارت الخروج من هذا التفكير الانعزالى؟

بداية يجب أن يكون هناك جسد لتلك الروح المفكرة. رجلنا العقلانى الغريب يزود الجسد بكل الافتراضات غير العقلانية: الجسر من أجل عبور الفجوة بين الروح المفكرة والجسد، إنها الغدة الصنوبرية: قطعة لحم صغيرة هى التى ستكون الطريق الذى ينشده من أجل إعادة ربطه بالعالم. حتى أرسطو لم يحصل على مثل تلك المساعدة الكبيرة الميتافيزيقية من أجل تجاوز الازدواجية فى فلسفته عن الذات: الذات والفكر اكتفيا بالتعايش السلمى فيما بينهما.

بعد ذلك وحتى يمكن للطبيعة التى تعيش خارج ذلك الفكر الانعزالى، ألا تتحول إلى وهم؟ يجب أن يكون هناك ضمان على

وجودها الحقيقى. هنا وجد ديكارت ملجأ غير متوقع: الله سيؤمن وجود الحقيقة فى العالم الخارجى. ولكن أى رب؟ يجب أن يكون متحدا فى كيانه وهويته مع الحقيقة الوحيدة التى لا يتشكك فيها ديكارت حتى الآن: وهى التفكير. لذا، فهو فى غير حاجة للغدة الصنوبرية من أجل الانتقال من التفكير إلى الطبيعة. لقد استشهد بالمدرسة التقليدية القديمة منذ سان أنسليم Saint Anselem (1033-1109) واستنبط الله من الفكرة التى صنعها: إننا لدينا فكرة للإنسان الكامل: «الله كبير بحيث إنه لا يمكن تصور أى شىء أكبر منه، ولكن هذا التكامل المطلق يتضمن الوجود. لذا، فإن الإنسان الكامل موجود». هكذا اكتملت الصورة: ذلك الجدل حول علم الكائنات هبط بنا إلى أرض الواقع، وأعطانا طبيعة لا ترى الله، هذا الساحر، مفيدا لديكارت. ويبدو أنه لا يؤمن به على الإطلاق: ففى لحظة صدق قال: «إننى أحتفظ بإله مربيتى».

ولكن علماء اللاهوت ليسوا أغبياء: فهم يمنعون تدريس الفكر الديكارتى فى السوربون.

وفى الحقيقة، برغم الالتواءات الميتافيزيقية لديكارت، فإن تصوره الآلى للعالم لن يكون توقعاته للحياة الميكانيكية للعالم، والتى أطلق عليها علماء القرن الثامن عشر أمثال ڤولتير: النقرة الأصلية لساعة الحائط التى تبدأ بها الحركة.

بعد دخوله العالم الجسدى والمادى، مع الغدة الصنوبرية وسان أنسليم، لم يعد يعرف كيف يتعامل مع الله من أجل بناء فيزيائه

الحسابية، التى طبقها أولا على البصر لدراسة انكسار الأشعة، ثم لدراسة أجهزة الرفع، والتى طبقها على كل ما يتعلق بالطبيعة، (قال: «الفيزياء ما هى إلا هندسة»). الحركة الميكانيكية (تلك التى يكتشفها المرء انطلاقا من رياضيات العصر الذى عاش فيه) تشرح كل شىء، منها على سبيل المثال البيولوچيا. ليس فى الكائنات الحية أشياء أكثر من تلك التى فى الآلات التى يقول ديكارت عنها إنه لاحظها فى حدائق ملوكنا، والتى أبدع فوكانسون فى بنائها. كل حيوان ما هو إلا آلة، والإنسان لم يتفاد ذلك المصير إلا بمعجزة إلهية، قامت، بمساعدة الغدة الصنوبرية، بوضع جسده فى تواصل مع روحه. ويكفى أن نقلص تلك العلاقة الغريبة حتى نستطيع أن ننتقل، فى القرن التالى، من الحيوان الآلى لديكارت، إلى الإنسان الآلى للاميترىLamettrie.

وهكذا، مع الاتساع (الذى يتم اكتشافه عبر الهندسة الانتقادية التى اخترعها) والحركة التى كان أول دافع لها هو وجود الله، جعلنا ديكارت أسياد الطبيعة وملاّكها. وانطلاقا من تلك النظرية أصبح هو أبو الحضارة التكنيكية ليقلص العقلانية إلى مهمتها الآلية: وسيلة قوة وثراء.

من هذا المنطلق تم استبعاد كل منطق وكل هدف للحياة. ولكن تلك الفلسفة، مثل كل الفلسفات الأخرى عن الذات، غير قادرة على تكوين حكمة معينة مغايرة عن حكمة الاستسلام لما هو واقع. والدليل عجز ديكارت على إقامة حكمة ليست مؤقتة. ومثل كل فلسفة عن الذات، لا تستطيع إلا أن تتطابق وتمتثل للوضع القائم. هذه الفلسفة تتضمن، كما يعلمنا كتابه حديث المنهج، أن نطيع القوانين والتقاليد وأن نحكم أنفسنا «حسب الآراء الأكثر اعتدالا

والأكثر بعدا عن التطرف» ، «ونحاول الفوز بالثروة» و«تغيير رغباتنا بدلا من تغيير النظام العالمي» . من هنا جاءت التعبيرات التي تقول : المنهج الوحيد اللائق سياسيا . عندما سألته الملكة إليزابيث ، في منفاها في إستوكهولم ، عن كيف يستطيع الإنسان أن يعطي لحياته معنى وهدفا ، عجز ديكارت عن أن يعطيها إجابة ، واكتفى بقول تفاهات (كما كان يقول ليڤي ستراوس) عن العزيمة والشهوة ليصل إلى قلقه الوحيد والخاص بالسيطرة التكنيكية على العالم ، ويؤكد أن حديث المنهج هو دراسة عن الحرب . على أي حال ، فإن كتابا عن القوة التكنيكية لا يطرح مشكلة الأهداف . كما لم يطرحها أبدا ضابط في سلاح الفرسان المرتزقة ، رينيه ديكارت ، الذي وضع نفسه (في ذلك العصر من الحروب الدينية الدموية) في خدمة كل من قوات البروتستانت التابعة لموريس دي ناسو في عام ١٦١٨ والتي كانت تحارب ضد إسپانيا من أجل استقلال هولندا ، وقوات كاثوليكية تابعة لماكسيميليان دي بافيير في عام ١٦١٩ ، التي كانت تحارب بجانب عائلة هابسبورج ، التي دمرت استقلال لابوهيم في معركة مونتاني بلانش ، بالقرب من براج ، في ٨ من نوڤمبر عام ١٦٢٠ ، مما فتح لشعب كامل عصرا من الظلام .

عقلية المرتزقة والمكتشفين تلك ، (الذين رحلوا لاكتشاف أمريكا) خدمت بطريقة مدهشة الحضارة التجارية والاستعمارية التي كانت على وشك أن تنطلق . والفلسفة التي تناسب هذه الحضارة ، تلك الخاصة بتقليص المنطق إلى مهمته التكنيكية كأداة للقوة والثراء ، أصبحت طوال ثلاثة قرون ، هي المعبود المقدس للنظام الاجتماعي

المنتصر ولنوره وتقدمه، وحتى منتصف القرن العشرين استطاع جاستون باشيلار أن يصور تلك الفلسفة، بعد اكتشاف فيزياء الجزىء والنسبية، بفلسفة لاديكارتية.

* * *

إن فلسفة النور فى القرن الثامن عشر، التى شهدت انطلاقها الكبير فى فرنسا، هى فى الحقيقة الفلسفة الديكارتية بعدما شذبت من بنيانها اللاهوتى أو الصنوبرى الضعيف، وانطلقت بالتالى نحو المادية الآلية المتطرفة، كما بدا لدى الطبيب لاميترى (١٧٠٩ـ١٧٨١) مع كتاب **الإنسان الآلة** (١٧٤٨) وهو التكملة المنطقية لفكر ديكارت فى **الحيوان الآلة**.

هيلفيتيوس (1715-1771) Helvetius محصل الضرائب لدى الملك ومن المعجبين بالنظام السياسى الإنجليزى، كما تشير اتصالاته فى لندن، أعطى رؤية أكثر شمولية لهذه الإنسانية المتفجرة وذلك باستلهام نظريات الإنجليزى لوك (١٦٣٢ـ١٧٠٤) حول التجربة.

ديدرو (1713-1784) Diderot أعطى فى كتابه **«الموسوعة»** تصوراً عن «مجمل العلوم فى عصره» ولكن بدون أن يتجاوز حدود التفكير البرجوازى الذى وصفه فقال: «الذى يملك هو وحده المواطن».

وبرغم اتجاه المادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر نحو الفكر العملى الديكارتى، فإنها أدت دورا تاريخيا إيجابيا بإعطاء أسس أيديولوچية للكفاح ضد الإقطاع، والشرعية التى منحها له الدين،

وذلك عن طريق تبرير الحق الإلهى للملوك والمميزات الطبقية ، كما كان يحذر بوسيويه فى القرن السابق ، من الملكية المطلقة انطلاقا من السياسة المأخوذة من الكتاب المقدس .

هذا الدور الثورى للمادية الفرنسية لن يعمم على كل أشكال المادية : المادية الإنجليزية لهوبز قامت أيضا بتبرير الاستبداد المطلق فى كتابه **ليڤياثان** ، بينما اعتبر كارل ماركس نفسه وريث المثالية الألمانية . كتب زميله إنجلز فى نهاية حياته (١٨٩١) : «نحن ـ الاشتراكيون الألمان ـ نفتخر بأننا نجد جذورنا ليس فقط لدى سان سيمون ، وفورييه وأوين ، بل أيضا لدى كانت وفيشت وهيجل» . (أعمال ماركس وإنجلز الطبعة الروسية . المجلد الخامس عشر ، ص ٦٢٥) . وقال مرة أخرى ، فى عام ١٨٧٤ ، فى مقدمة كتابه الثورة الديمقراطية البورجوازية فى ألمانيا (طبعة سوسيال ص ٢٣) : «لو لم يكن هناك فلسفة ألمانية سابقة ، خصوصا فلسفة هيجل ، لما وجدت الاشتراكية العلمية» . كما قال ماركس نفسه عن فويرباخ : «إذا قارن المرء فويرباخ بهيجل ، فإن فويرباخ يعد فقيرا جداً» . (خطاب إلى شفايتزر فى ٢٤ـ١ـ١٨٦٤)

ذلك يسمح لنا بتفسير صحيح لصيغة ماركس ، (الذى كان يرى نفسه تلميذا انتقاديا لهيجل) ، عندما قال إنه «أعاد جدلية هيجل . . » فإن هذا التحول لا يعنى أن ماركس قال : المادة ، حيث قال هيجل : الروح ، مما كان سيقودنا إلى المادية العملية السابقة . ذلك يعنى : الانتقال من فلسفة الذات إلى فلسفة الفعل .

من الناحية النظرية، المادية الفرنسية المأخوذة من ديكارت، هم
النضال ضد الدين والميتافيزيقية لصالح تطور العلوم والطبيعة.

ندد ماركس بتلك المادية مرتين.

فى المرة الأولى عندما درسها فى الشكل الذى قدّمها به العا
الآلى. إن المادية التى سبقت الماركسية لديها تصور ضعيف جدا ع
المادة، مجرد شبح هلامى، لا يطيع إلا قوانين الآلية وحدها.

بعد ذلك، وبشكل خاص، ادعى أنه يبقى داخل الأشياء بدلا من ا
ينطلق من نشاط الإنسان العملى: «الخطأ الأساسى لكل الماديا
السابقة - ومنها مادية فويرباخ - هى أنه لا يمكن فهم الشىء والحقي
والعالم المحسوس إلا فى إطار الشىء أو البديهية، ولكن ليس كنشا
إنسانى ملموس أو عملى، بطريقة ذاتية، وهو ما يفسر لماذا تطور الجان
الإيجابى بالأخذ بالمثالية فى مواجهة المادية، ولكن تجريديا فقط، لا
المثالية لا تعرف بالتأكيد النشاط الحقيقى، الملموس، كما يجب.

المادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر، تلك التى قدمها هولبا
وهيلفيتيوس ودى لاميترى، استسلمت أمام وهمين اثنين: الأول
الوهم العلمى الذى يفرض على الطبيعة القوانين العلمية التى تعر
الآن فى لحظة تطور علوم الطبيعة، وكأنها تضم الجوهر الحاسم
وبالتالى إفقار الفكر الخاص بالمادية، فيتحول على سبيل المثال إ
مجرد هيكل عظمى ساهمت فيه الهندسة أو الآلية. هذا رغم أن ك
اكتشاف علمى كبير من شأنه أن يثرى الفكر الفلسفى للمادة، ك

أوضح إنجلز فى كتابه لودفيك فويرباخ مندداً بالـ «الشكل المسطح، الهمجى، الذى مازالت المادية موجودة فيه إلى اليوم».

أما الوهم الثانى، وهو أكثر تأسيسا، والذى كانت بدايته مجرد فرع من أصل، هو الوهم العقائدى، والذى يدعى أنه ينتقص من العملية، ومن نشاط المعرفة وبالتالى من شخصيته التاريخية، والتى هى تاريخيا مسألة نسبية، من أجل أن يستند بأسلوب التجريبيين، على معطيات مزعومة، وكأن الشىء لم يكن تماما كما صنعه التكنيك ـ وفكر رجال كتبوا أعمالهم منذ عدة آلاف من السنين حول تحول الطبيعة.

***

شكلت الثورة الفرنسية فجوة فى تاريخ الفلسفة كما فعلت فى التاريخ السياسى لأوروبا.

عند النقطة الفاصلة لتلك الطفرة، ظهرت أعمال كوندورسيه Condorcet (1743-1794) الذى كان أول من صاغ بطريقة منهجية أسطورة التقدم فى نفس الشكل الذى ظل يسيطر على النفوس طوال مائتى عام برغم تكذيب التاريخ الحقيقى لها، مستبدلا بها أسطورة القدر التى هيمنت حتى القرن السابع عشر. هذه الأسطورة الجديدة ستستمر فى أشكال مختلفة فى القرن التاسع عشر مع أوجوست كومت Auguste Comte وكتابه **قانون الأشكال الثلاثة**، وفى القرن العشرين مع معانى النمو أو التطور الكمى والذى يتحدد من خلال الناتج القومى.

كان كوندورسيه عالم رياضيات يحمل عقلية موسوعية، وأصبح سكرتيرا دائما فى أكاديمية العلوم فى عام ١٧٧٣ .

ولقد أقنعته شواهد الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر بأن تطور التكنيك والعلوم ليس له نهاية، وأن سلطة الإنسان التى بلا حدود على الطبيعة قد تضمن الرفاهية للجميع، عن طريق الزيادة اللانهائية للثروات.

لم يشارك كوندورسيه فى تفاؤل آدم سميث الذى تمسك بالإنتاج المستمر لثروات الأمم بدون أن يهتم بتوزيعها: وفى ١٢ من مارس عام ١٧٩٢، أشار فى تقرير مالى قدمه إلى المجلس التشريعى ـ الذى كان يرأسه ـ إلى: «أن كل مجتمع كبير غنى يضم عددا كبيرا من الفقراء، يصبح تعيسا وفاسدا». ولكن ذلك بالنسبة له ماهو إلا مرحلة انتقالية تتطلب، من أجل تعديل عناصر عدم الاستقرار فيها، «مؤسسات تقدم المعونات والثروات إلى الجزء الفقير من الشعب».

وذلك لم يكن بالنسبة له إلا أزمة نمو يمر بها النظام. فى كتابه تخطيط لوحة تاريخية لتقدم النفس الإنسانية الذى نشر فى عام ١٧٩٤، فى نفس العام الذى اختبأ فيه بعدما وجه إليه الجيرونديين اتهامات، ثم انتحر عندما عثروا عليه، أشار فى كتابه إلى أن تطور الاختراعات العلمية والتكنيكية بلا نهاية، وربطها بتعليم عام، سيسمح بتقدم لانهائى لسعادة الإنسانية.

هذه السعادة يمكن تحديدها كمّا حيث إنها تقاس حسب القوة المتزايدة للإنسان على الطبيعة، بمعنى أنها تقاس بالعائد المتزايد من الصناعة الآلية، وبالثروة التى تحققت من خلال تلك الإنتاجية.

كان المشروع كريما ؛ لأنه كان عليه أن يضمن للجميع تلك السعادة، ولكنه أيضا وبسرعة أثبت العكس من خلال مجون الرأسمالية التى حققت فى تزايد مستمر ، وفى نفس الوقت، غزارة فى الثروات، وأعدادا متزايدة من العبيد والمهمشين، مع تركيز الثروة عند قطب واحد من المجتمع لصالح أقلية تتزايد قلتها، والبؤس عند القطب الآخر، مع تزايد أعداد الذين يتم استغلالهم، حتى فى الدول الغنية وفى تلك التى أدى الاستعمار فيها إلى أن تتحول إلى دول نامية.

الاعتراض الآخر، والأكثر أهمية، لأسطورة التقدم، ينبثق من الاختيار نفسه لمعايير السعادة. إنها مسألة تتعلق بمشكلات الأهداف ومعنى الحياة، ونحن سنقوم بدراستها عن طريق اختبار الافتراض الثالث (الدينى) للحضارة الغربية: من فاوست إلى عالم اللامعنى.

وسنكتفى الآن بتقديم كشف حساب لمشروع ديكارت: **أن نصبح أسياد الطبيعة وملاكها.**

هذا الهدف تم التوصل إليه بجدراة عن طريق العلوم والتكنيك الذى أعطانا القدرة على تدمير تلك الطبيعة. قنبلة هيروشيما أسفرت فى لحظة عن مقتل ٧٠ ألف شخص، (وهو ما يعدّ تقدما مؤكدا، بالمقارنة بچانكيز خان الذى احتاج إلى سبعة أيام من أجل أن يبنى هرما من عشرة آلاف جمجمة فقط، عندما استولى على أصفهان).

القوى النووية تملك اليوم مخزونا يماثل نحو مليون قنبلة من قنابل هيروشيما، أى الإمكانية التكنيكية لتدمير ٧٠ مليار إنسان: وهو ما

يماثل ١٢ مرة كل البشر الذين على الأرض. القدرة على محو أى علامة للحياة.

ولكن ذلك لا يمثل إلا حالة محدودة: فإن انتحار الكون ببطء أصبح مسألة مؤكدة: تدمير طبقة الأوزون من خلال التلوث الناتج عن الصناعات أصبح يهددنا ابتداء من اليوم ولمدة ثلاثين عاما، بتزايد ارتفاع درجات الحرارة، وبالتالى بذوبان الجليد فى القطبين بشكل يكفى لإغراق المدن الساحلية. كل ذلك سيحدث حتى ولو استطعنا أن نوقف استغلال القطب الشمالى الذى يقوم بتنظيم البرودة فى المناخ، مما يسرع من عملية ارتفاع الحرارة.

الدور المدمر الذى تقوم به السوق لا يتوقف هنا: فإن الاهتمامات الوحيدة العقلانية الاقتصادية والربح على المدى القصير، تجعل من سوق البناء وتعمير المدن أكبر وحش يلتهم المساحات العمرانية، والبنية التحتية من خلال البناء السرطانى للمبانى العشوائية. الحرائق، التى تحيل المساحات إلى مناطق صالحة للبناء، تدمر سنويا كميات من الغابات تماثل مساحة دولة مثل النمسا (ويتم تحويلها إلى أراضى رعى أكثر ربحا).

الغابات الاستوائية، فى الأمازون على سبيل المثال، أدى جشع المستوطنين لإقامة مراع مركزية، إلى تدمير ٢٤ هكتارا يوميا، والمخاطرة بتنفس خمسة مليارات إنسان، وإجلاء نحو مليار منهم، خلال ثلاثين عاما قادمة، هروبا من التصحر.

تلك هى بعض الأمثال على التقدم الذى تحقق من خلال السيادة والملكية للطبيعة، مما يطرح المشكلات الأخيرة مثل استنفاد التربة من خلال المعالجة الكيمياوية، ثم بعد ذلك هناك مشكلة التلوث المناخى الذى أسفر بالفعل عن ضحايا فى المدن الأخطبوطية التى شوهت من خلال المضاربات التجارية لمشجعى بناء المدن وتزايد السيارات بشكل عشوائى. وهناك مذابح البحار وثرواتها السمكية، وتدمير الطاقات التى لا يمكن تجديدها مثل البترول. المياه والهواء والأرض، كل المجالات الضرورية للحياة أصبحت مهددة، ويتساءل المرء: إن استمر فى هذا الطريق الانتحارى، هل سيكون الكون مكانا صالحًا للحياة فيه مع نهاية القرن الواحد والعشرين؟ .

(ج) من فاوست إلى عالم اللامعنى

(الفلسفة الألمانية)

لقد كانت هناك لحظة فى تاريخ الغرب، فى زمن افتراضات مارلو، فاوست الأول، الذى قال: «أيها الإنسان، من خلال عقلك القوى، كن إلها»، فى ذلك العصر كان عمالقة الفكر أمثال جوته Goethe وكانت Kant وفيشت Fichte أو هيجل Hegel كانوا يؤمنون حقيقة أن الإنسان يمكنه أن يحل محل الله فى حكم العالم.

كان جوته يقول لفالمى "Valmy" : من هذا اليوم ومن هذا المكان يبدأ عصر جديد من تاريخ الإنسانية.

لقد كانت الفلسفة الألمانية تمثل استثناءً (عظيما) فى الفكر الغربى.

ألمانيا، المفككة إلى إمارات صغيرة ذات أصول إقطاعية ـ والتى كانت آخر دولة أوروبية تحقق وحدتها فى أواخر القرن التاسع عشر ـ لم تشارك منذ الثورة الفرنسية والغزو النابليونى، سواء بالأخذ أو بالعطاء، فى الحركة العامة التى سادت أوروبا الرأسمالية، حيث كانت إنجلترا هى الدولة الرائدة، واستكملتها فرنسا بعدها.

لهذا، لم تستطع تلك الإمارات الإقطاعية الصغيرة أن تفرز مثقفين

عضويين، مثلما فعلت كل من إنجلترا وفرنسا، بسبب تأخر وضآلة تلك الولايات القزمة التى خلفها ماضى أوروبا من العصور الوسطى.

ولقد أدى ذلك فى الوقت نفسه إلى تحقيق عظمة الفلسفة الألمانية وحدودها : العمالقة يشكلون فكرهم انطلاقا من تجارب الآخرين.

لقد فكر الكاردينال دى كيو De Cues طويلا فى الإسلام خلال فترة ازدهاره وفى الحضارات الشرقية. ولايبنيز استشف أهمية الفلسفة الصينية. ولقد تجاوز هذان العبقريان الفضاء الغربى، فلم يشاركا فى انفصالاته.

ولكن وقع حدث خارج نطاق تلك الإمارات الصغيرة، أثر تأثيرا حاسما على عمالقة الفكر الألمانى فى القرن التاسع عشر (كانت، فيشت، هيجل) : هذا الحدث هو الثورة الفرنسية التى كسحت من أمامها الآفاق الضيقة القديمة. الجميع اهتز من جراء تلك الطفرة فى التاريخ، التى لم يستطع أحد أن يتوقعها أو يصنعها وهم داخل زنزانتهم الأيديولوچية، المغلقة عليهم فى أدراج صغيرة متأخرة. وكما كتب عنهم ماركس يقول : «لقد فكروا فيما فعله الآخرون». وآخر هزيمة لتلك الثورة مع فكرتها لإصلاح الماضى، دفعت العديد منهم لأن يرنوا إلى ذلك العصر، وإلى التدهور (الفلسفى والسياسى) كما رأينا ما حدث على سبيل المثال مع فيشت وهيجل، اللذين اكتفيا «بالصياح مع الذئاب». ومثل آخر، وهو اليأس الذى أصاب جوته العظيم. إذ قال ماركس عنه : «شاعر فاوست العملاق ينمحى أمام الوزير وايمر التافه».

هذه الانهيارات الشخصية والنهائية لن تتمكن من أن تجعلنا ننسى الأعمال القوية فى عصر شهد عظمتها والتى ارتبطت بأمل تاريخى كبير.

١ - آخر فرسان الروح: فيشت، هيجل

فيشت (١٧٦٢) فسر ثورة كانت الكوبرنيكية التى أسست الاستقلال السيادى للإنسان فى المجالين العملى والنظرى، والثورة الفرنسية التى خلقت قانونا جديدا وعالما جديدا انطلاقا من مبدإ الاستقلال السيادى للإنسان ومنطقه.

وقدم خدماته لفرنسا واقترح عليها فلسفته لتكون الأساس النظرى لثورتها.

«إن منهجى هو أول منهج للحرية. إذا كانت هذه الأمة (فرنسا) حررت الإنسانية من قيودها المادية، فسيحررها منهجى من قيود الشيء فى حد ذاته، من التأثيرات الخارجية، وأول مبادئها أن تجعل من الإنسان كائنا حرا ذا سيادة. ولد الفكر العلمى خلال تلك السنوات التى نصرت فيها الأمة الفرنسية الحرية السياسية بقوة الطاقة: ولد هذا الفكر نتيجة الصراع العميق مع نفسى وضد كل مشاعر التحامل الراسخة داخلى، ولقد أسفر النضال من أجل الحرية عن مولد «عقيدة العلم»، وإننى أدين لقيم الأمة الفرنسية برفعى إلى أعلى، إننى أدين لها بأنها استطاعت أن تثير فى نفسى الطاقة الضرورية لاستيعاب تلك الأفكار. بينما كنت أكتب كتابا حول

الثورة، استشعرت لأول مرة منهجى، وكأنه تعويض. وهكذا عددت هذا المنهج وكأنه ينتمى إلى حد ما إلى الأمة الفرنسية».

بنفس تلك الحماسة، ذكر هيجل (١٧٧٠ـ١٨٣١) عشية وفاته، أن الأمل الكبير فى شبابه كان عندما تفجرت الثورة الفرنسية، وكان وقتها يبلغ من العمر ١٩ عاما:

«الفكر، فكرة الحق أصبحت فجأة ذات قيمة، والبناء القديم لعدم المساواة لم يستطع تحمله (. .) ومنذ أن ظهرت الشمس فى القبة السماوية (. .) لم نر الإنسان (. .) يؤسس نفسه حول فكرة وعلى أساسها يبنى الحقيقة (. .) إنها إذن شروق بديع للشمس. كل الكائنات المفكرة احتفلت بذلك العصر. وساد إحساس سام فى تلك الفترة، وأدت حماسة النفوس إلى أن يرتجف العالم، وكأننا فى تلك اللحظة فقط توصلنا إلى المصالحة الحقيقية للإله مع العالم». (دروس عن فلسفة التاريخ. ص ٤٠١).

ذلك كان المصدر التاريخى لفلسفة حديثة عن الفعل، قال عنها ماركس: «إنها النظرية الألمانية للثورة الفرنسية».

ومن فلسفته الخاصة عن الفعل التى أعطى صياغتها المشهورة فى كتابه النظرية الحادية عشر عن فويرباخ، فى عام ١٨٤٤ : «الفلاسفة لم يفعلوا حتى الآن إلا تفسير العالم، الآن أصبح من المهم أن نغيره». لقد قام أولا بالبحث عن المصدر فى فلسفة فيشت.

إن الفكرة الرئيسية فى منهج فيشت هى أن الإنسان خالق، فكرة أن الإنسان هو ما يفعله. ولأول مرة فى تاريخ الفلسفة، أعيد النظر فى

أهمية الجوهر، والتفسير المسبق، وذلك لمصلحة حرية العمل الخلاق.
لأول مرة تتعارض جذريا فلسفة الفعل مع فلسفة الذات.

وبالنسبة له، الوجود هو الفعل، الخلق. هذا الفعل، هذا الخلق، يتجاوز باستمرار ما تم خلقه بالفعل وخضع إلى قوانين المعرفة، التى تعدّ مستوى ثانيا من التأمل بالمقارنة مع الفعل والخلق.. التأمل الأول للإنسان. ولكنه لا يلغى رغم ذلك تلك الأعمال السابقة، إنه يضم معا كل الظروف التى تفرض نفسها على الفعل ويقاومها، تماما كما لو تضمنت جوهر الإنسان، ليس ذلك الذى مضى من قبل، ولا ذلك الذى صنع، ولكن ذلك الذى سيكون، بإثراء مستمر.. لفكر فيشت، الذى أعطى كيانا وحقيقة إلى الأثر التقليدى الذى تركه الخلق الإنسانى فى أثره، واكتشف، فى شكل مجرد على الأقل، ما سيكون، عن طريق تجسيد المبدإ الأساسى للمادية التاريخية فى التجربة الاجتماعية والتاريخية: **«الإنسان يصنع تاريخه، ولكنه لا يصنعه بطريقة مجردة، أو تحت ظروف اختارها، ولكن فى ظروف أعطيت له مباشرة وورثها من الماضى»**.

الوجود ليس من المعطيات، وليس فى مفهوم الطبيعة، كما يفهم التجريبيون والماديون، وليس فى مفهوم الجوهر، كما يفهم العقلانيون العمليون والجدلية السابقة على الماركسية؛ لأن الوجود هو فى إطار الفعل، الخلق، هناك تاريخ، هناك انبثاق للجديد، لا تستطيع الأنا التى يبدأ منها، ولا تلك التى ينتهى عندها، أن تخلطا بأنا الفردية الأنانية.

الأنا التى يتحدث عنها فيشت، ليست تلك الفردية لأنها ليست عطية ولكنها فعل، هى: الإنسان الذى يتحرك ويحمل داخله قانون التعقل.

الأنا التى تُعد الصيغة المثلى للمنهج، هى الموضوع الذى حق بالكامل، فى داخله وخارجه (فى الطبيعة وفى المجتمع) عالما كام شفافا أمام التعقل، ولهذا توقف عن أن يكون فردا معينا.

من ناحية المبدإ كما فى النهاية، الأنا التى يتحدث عنها فيشت بدلا من أن تعزل نفسها فى إحساسها المفرد وتقبل الوضع، تطال بتحقيق الكون. هذه الأنا تكمن فيها أولا كل الإنسانية. إنها النتيج النهائية لكل الإنسانية، فهى لم تتكون فقط من ثقافتها السابقة، ولك من كل ما تواجد فى تاريخها بكامله. يقول فيشت، إنها «توح القديسين». إن ما كان يميز تصور الأنا عند فيشت، هو تجاوزه باستمرار. فى كل مرة تضع الأنا حدودها، تتجاوزها مباشرة، وكأ اللانهائى يدعوها: حاضرها لا يفسر أبدا إلا من خلال مستقبلها الذ; يولد. الأنا دائما مشروع: ما كنته وما أنا الآن عليه، لا يكتمل معن إلا من خلال ما سأكونه. لذا، فإن الوجود لم يكن أبدا من المعطيات ولكنه خلق. المستقبل دائما فى حالة تكوين. ذلك هو المبدأ الأو لفلسفة الفعل.

والممارسة فى النهاية، هى فى فكر فيشت، ورغم مرادفاته المأخوذة من كَانْت ومثالياته، التزام الإنسان ككل فى المجهود الجماع من أجل صناعة التاريخ، وتحويل الطبيعة وبناء المجتمع.

كتب فيشت يقول: «الإنسان الذى يعزل نفسه، يتخلى عر مصيره. ويفقد اهتمامه بالتقدم الأخلاقى. من الناحية المعنوية

يصبح التفكير فقط فى النفس، ثم فى النهاية ليس حتى تفكيرا فى النفس، لأن الهدف السامى للفرد ليس فى داخله، ولكن فى الإنسانية جمعاء. المرء لا يرضى بماهو فرض، كما كان علينا دائما أن نتصور وكما جعلنا منه دائما أفضلية، بالانزواء فى أعلى مستويات التجريد والافتراض البحت، ومعايشة حياة الناسك. إن المرء ترضيه الأفعال وليست الأحلام، الأفعال التى يقوم بها فى المجتمع ولأجل المجتمع». (فيشت، سيتنليهر، المجلد الرابع، ١٨).

إن وضع فيشت كتلميذ للثورة الفرنسية، يجعله بدون شك سجينا دائما داخل تصور تاريخى بورجوازى للملكية ويعطيه وضعا ميتافيزيقيا: الملكية هى الساحة الضرورية من أجل ممارسة الحرية والمادة الضرورية للفعل: ولكن عندما تجاوزته حركة التاريخ نفسها التى شككت جذريا فى الملكية فى شكلها الإقطاعى، رفض الاعتراف بالملكية مع الاحتفاظ بالثروات المتاحة. مرة أخرى، وبنفس الروح التى ألهمت كل فلسفته، أشار إلى أن فى مواجهة الشىء هناك الفعل. ويظل العمل هو جوهر الملكية: وحسب نظرية فيشت للقانون، الشىء الوحيد الذى أملكه شرعا هو ما أمارس عليه حريتى.

يرى فيشت ـ انطلاقا من نظريته عن الدولة والعقد، ورغم اتساع السلطة التى يؤولها إلى الدولة ـ أن أى إنسان يقع تحت طائلة الفقر والجوع يتحرر من كل واجب اجتماعى. هكذا تجاوز فيشت فكرة الحرية الرسمية وتوجه إلى المطالبة بالحق الحقيقى.

ولكن لأنه كان سجينا، مثل الثورة الفرنسية نفسها، فى الغموض الذى ساد بين حرية السوق والحرية الإنسانية، هذا الغموض الذى

يسمح لتلك الحرية أن تتحقق سواء فى ديمقراطية (مفتوحة أو تحت الرقابة المنافقة) أو فى ديكتاتورية بوناپرتية، ففى الوقت نفسه الذى أعلن فيه هزيمة ناپليون، وأعلن عودة الحكم الاستبدادى فى بروسيا، تحول هذا الجبار الفريد من نوعه صاحب عقيدة العلم، إلى كائن وديع يدعو إلى أن الفلسفة: «تعدُّ كل شيء ضروريا وجيدا، وتصالحنا على كل ما هو موجود، كما هو موجود، لأنه بالضرورة خلق هكذا لأجل أهداف نهائية». (فيشت، السمات المميزة لعصرنا).

لقد كانت مسيرة هيجل الفلسفية من نفس طبيعة مسيرة فيشت. فلقد عاش هو أيضا انهياراً عالميّا، ومولد آخر وإجهاضه السياسى. كان يبلغ من العمر ١٩ عاما عندما استولى الثوار على سجن الباستيل، و٢٤ عاما فى ثيرميدور، و٢٩ عاما فى ١٨ برومير. كان على وشك الانتهاء من كتابه علم ظواهر النفس عندما زحفت قوات الغزو الفرنسية فى عام ١٨٠٧ إلى «يينا»، أمام منزله، وعندما أكدت معاهدة سلام تيلسيت انهيار وطنه بروسيا.

كتب علم المنطق، من عام ١٨١٢ إلى ١٨١٦، أى فى الوقت الذى بدأت فيه، فى عام ١٨١٣، الثورة الوطنية فى بلاده ضد الإمبراطورية الناپليونية وهزيمة ووترلوو.

العام الذى نشر فيه كتابه فلسفة القانون، فى عام ١٨٢١، كان هو العام الذى عقد فيه مؤتمر التحالف المقدس، فى لايپاخ.

وفى الفترة بين عامى ١٨٢٢ و١٨٣١ بدأ محاضراته عن دروس حول فلسفة التاريخ، فى أثناء أكبر اضطرابات يشهدها التاريخ: ولقد

بدأها فى الوقت الذى أعلنت فيه اليونان فى عام ١٨٢٢ استقلالها فى إبيدور. ووقع انقلاب ضد الملكية الإسپانية وكسرت فيه أمريكا اللاتينية قيود الاستعمار من إسپانيا، وفى عام ١٨٢٥ تفجر فى سان بيترسبورج، تمرد الديسمبريين.

ولا يمكن فهم العمل الضخم الذى قدمه هيجل فهما كاملا إلا فى ضوء ذلك الجحيم.

ففى هذا الإطار، قد تصبح مفهومة تلك المحاولة الهيجلية للوصول إلى البحث التركيبى بين الكون والفرد، بين فلسفة لوجوس عند اليونانيين، واللحظة المسيحية للذات.

عندما وجد هيجل وهو فى سن العشرين، فى الثورة الفرنسية الإجابة عن المشكلات التى طرحها الوضع فى ألمانيا، تصور أنه اكتشف رمز الحرية الكاملة، فى التجانس بين الفرد والمجتمع وبالتالى، فى التجانس الداخلى للإنسان بين منطقه وعواطفه، وتصور أنه مثلما كان فى المدينة والدين فى عصر الإغريق.

ولكن التطور نفسه للثورة الفرنسية والمقاومة التى واجهتها، فى فرنسا وفى ألمانيا أيضا، والخلافات التى تزايدت وضوحا بين مثالية الرغبة العامة والمصالح الخاصة، تحالفاتهم وتمردهم، كل ذلك كانت تجارب قادت هيجل إلى البحث فى المصادر التاريخية لتلك التأكيدات للفرد، ولخاصيته، ضد الجميع. دراسة تفتيت المدينة القديمة، من مولد المسيحية وتطورها، قادته إلى فكرة أكثر تعقيدا وأكثر ثراء للحرية. فمع مشاركة الإنسان الإيجابية فى مدينته على

الأرض، أضيف مطلب جديد: ذلك الخاص بذاتية الإنسان التى لا تقهر. مشكلة هيجل أصبحت أكثر تعقيدا. منذ ذلك الحين طرحت مشكلة الحرية فى تعبيرات جديدة: كيف يمكن إيجاد التداخل الحى لمجمل المجتمع فى الإنسان عن طريق دمج لحظة الانفصال، لحظة الذاتية؟ الحرية تفسر دائما عن طريق المشاركة فى الكل، ولكن عبر إدراك النفس.

مع المسيحية، عرف الضمير تمزقا مزدوجا: مواجهة بين عالمين، العالم الغيبى والعالم التحتى، ونفس المواجهة تواجدت داخل الإنسان. العالم المسيحى هو عالم الضمير الحزين.

لم ير هيجل فى ذلك حادثا تاريخيا، لكن قانونا ضروريا للتطور: منذ ذلك الحين، وللوصول إلى السعادة، يجب تجاوز التعاسة. إنها موضوع أساسى فى أعمال هولدرلين Holderlin وجوته.

وهى أيضا الفكرة الرئيسية لفلسفة التاريخ لدى هيجل. التاريخ بالنسبة له، هو تقدم الحرية. ولكن التقدم ليس مسألة مخططة. فى مقدمة كتابه دروس حول فلسفة التاريخ وصل نظامه المثالى إلى الازدهار الكامل، وأعطى هيجل الصيغة الواضحة للشخصية المتناقضة والجدلية، لهذا التقدم.

أجبر هيجل نفسه على تجاوز التشاؤم، عن طريق استبدال بالفكرة البسيطة للتقدم كما شكلتها فلسفة النور (مثل كوندورسيه) ـ فكرة أخرى عن تقدم الحرية عن طريق دمج لحظة الانفصال، لحظة تدمير الوحدة، الضمير داخل الإنسان، وهو ضمير حزين.

حاول هيجل التوصل إلى النتائج الهيلينية والمسيحية . من النتائج الهيلينية أن الإنسان لم يدرك مدى تعاسته فى الوحدة الحية للمدينة ، ومن النتائج المسيحية أن الإنسان ، إذ توصل إلى الإحساس الدقيق بنفسه ، وإلى الحزن واليأس ، لم يدرك مدى سعادته .

القدر هو أسلوب حياة الكل فى الفرد ، والخاصة فى المطلق . تداخل اللانهائى فى النهائى هو أحد الموضوعات الرئيسية للنظام الهيجلى .

فى عام ١٨٠٠ تقريبا ، أصبح المنظور التاريخى ، بالنسبة لهيجل ، غير واضح . الحلم الهيلينى الكبير ، بعد فترة الرعب ، ابتعد وكأنه سراب : لم يعد ممكنا ، بالنسبة لهيجل ، أن تتواجد الوحدة الاجتماعية الكاملة مباشرة وبشكل نشط فى كل فرد كما كانت بالنسبة للمواطن الحر فى المدينة القديمة . إما أن يقوم الكل بإذابة الخصوصية ، كما حدث فى رأيه خلال فترة الرعب ، وإما أن تتشابك خيوط المصالح الخاصة بين الفرد والدولة ، فتعطى للمجتمع المدنى وللتشابك بين الرغبة والشهوات الاقتصادية التى فى حالة مواجهة ، السيطرة الحقيقية على الأفراد وعلى الدولة ، كما يشهد على ذلك فساد رجال الأعمال فى فترة الديركتوار .

وجد هيجل الحل لهذه المشكلة فى نظام الكونصولا والنظام النابليونى : حيث تتحكم الدولة فى المصالح الاقتصادية الكبرى وتفرض نظامها لوقف فوضى المنافسة .

لقد قرر هيجل أن يتصالح مع العالم الحقيقى ، الصياح مع الذئاب (خطاب ٩ فبراير عام ١٧٩٧ ، المجلد الأول ٤٩) .

تأكيده على سيادة الإنسان، قاده حتى تلك اللحظة إلى التمييز فى التاريخ بين ثلاث مراحل أساسية:

- مرحلة المدينة القديمة، وجمهورياتها المستقلة حيث يحقق المواطن ذاته كاملة فى وطنه.
- مرحلة المسيحية، حيث فترة الاستعباد التى انزوى فيها الفرد على نفسه وعدّ الطبيعة والمجتمع قوى أجنبية (غير صديقة).
- مرحلة الثورة الفرنسية التى سمحت باستعادة الحرية الملموسة للمواطن القديم وذلك عن طريق إنقاذ خصوصية كل فرد.

والآن بعدما خاض هيجل تجارب التيرميدور، والديركتوار، وحروب الكونصولا، والحفاظ على الوضع القائم الاجتماعى فى ألمانيا، بدأ يستشعر آلام التناقضات فى عصره، وأدرك أن المشكلة لم تعد تغيير هذا العالم تغييرا ثوريا.

من هنا نبع التناقض الأساسى فى أعمال هيجل: انبهار نظرى بالثورة الفرنسية، يتحول عمليا إلى تبرير للملكية البروسية.

ولكن الانعطافات المأساوية لهذه الحياة لن تجعلنا ننسى عظمة الأعمال: فى كتابه المخطوطات لعام ١٨٤٤، ذهب ماركس مباشرة إلى الأهم، إلى الفكرة الأساسية لفصول السيد والعبد والثقافة، فى كتاب علم ظواهر النفس لهيجل:

عظمة «علم الظواهر» لهيجل ونتيجته النهائية - جدلية السلبية كمبدأ محرك وخلاق - يتضمن جزئيا فكرة أن هيجل يعد الإنتاج الذى يقوم به

الإنسـان بنفسـه وكـأنه عـملية تدريجـيـة . . كـأنه اغـتـراب ، وقـمـع هذا الاغتراب ـ أنه يفهم جوهر العمل ، ويرى الإنسان كنتيجة لعمله» .

من المدهش أن أكـثـر مـا يقـدره مـاركس فى أعـمـال هـيـجل هو بالتحديد المرحلة التى تبنى فيها فكر فيشت : فلسفة الفعل فى مقابل فلسفة الذات .

التـاريخ كله مـا هو إلا هذا الخلق المسـتـمـر للإنسـان بالإنسـان فى تطوره الجـدلى . مع «إنكار الإنكـار . . توصل هيـجل إلى التـعـبـيـر المطلق ، المنطقى ، المتوقع لحركة التاريخ» .

هذا الاكتشاف الرئيسى لهيجل لن يجعلنا ننسى حدوده .

قـال لنا مـاركس إن «هيـجل يضـع مكانتـه من وجـهـة نظر الاقـتـصـاد الحديث» (أى الاقـتـصـاد البـورجـوازى ، خـاصـة اقـتـصـاد آدم سـمـيث وريكـاردو) . وقـال أيضـا (وهى نفس الفكرة ولكن فى صـيـاغـة أخرى) : «الفيلسوف نفسه ـ وهو الشكل المطلق للإنسان المغترب ـ يعطى نفسه من أجل قيـاس العـالم المغـترب» . وأيضـا : «الاقـتـصـاد السياسى لم يعبر إلا عن قوانين العمل المغترب» .

كـمـا يؤمن بأن التـاريخ يصـل إلى هدفـه عندمـا ينتـصـر الاقـتـصـاد الصناعى والتجارى . فى ذلك الحين يمكنه أن يصيح كما صاح فاوست لجوته ، أمام نفس الانتصار : «توقف ، لحظة ، كم أنت جميل ! »

يقول ماركس بلطف : مع نظام هيـجل ، يتصور المرء «أنه كان هناك تاريخ ، ولكنه لن يكون بعد ذلك» .

ومع ذلك فلقد كانت الجدلية الهيجلية تضم فى أحشائها الحركة التى كان من التعسف وقفها .

يرى لينين أنه من المستحيل فهم كتاب رأس المال لماركس فهما كاملا ، وخاصة الكتاب الأول منه ، إلا إذا تفهم المرء تماما منطق هيجل . كما أعطى إنجلز ، فى خطابه إلى كونراد شميت فى أول نوفمبر عام ١٨٩١ ، هذه التفصيلة الإضافية : «قارن بين تطور التجارة فى رأس المال لماركس ، بتطور الذات عند الجوهر لدى هيجل ، تجد بينهما فكرا متوازيا مدهشا» .

فى حقيقة الأمر ، فإن الجدلية لدى هيجل هى أولا منطق العلاقة : فهى تضع كل الواقعية فى قلب الوحدة العضوية والحية الكاملة للأشياء .

بالنسبة لهيجل ، العالم وحدة كاملة ، والحقيقة هى إعادة بناء ذلك الكل ، وانطلاقا من هذا الكل ، يستطيع كل كائن أن يجد حقيقته ومعناه .

الجدلية هى منطق الحركة . فى هذا العالم الممتلئ بقوى متنازعة ، الحركة هى جانب ملزم للكون المتداخل . إذا تماسك كل شىء ، فإن كل شىء سيتحرك . والسكون انتقاص : إنها مشكلة غير حقيقية أن نتساءل كيف تم وضع تلك الكائنات البدائية الثابته فى حالة حركة . ولكن المشكلة الحقيقية هى أن نشرح ، بدءا من حقيقة الحركة ، ما يبدو من السكون ، وذلك يعد توازنا ـ إلى حد ما ـ مستقرا .

الجدلية هى منطق الحياة: إنها كيان كامل متحرك للعلاقات الداخلية لوحدة كاملة عضوية على وشك أن تكون.

نهايات الأشياء، إنها بالتحديد هذه الحركة التى تضمها فيها، هذا الاتجاه، الذى تمخّض عن التناقض بين طبيعتها النهائية، والتى تحملها، متجاوزة نفسها، إلى اللانهائى.

بالنسبة لهيجل، فإن التناقض والوحدة الكاملة تتعارضان وتمتزجان بعضهما ببعض مثل النهائى واللانهائى: فإن ما يعده اللانهائى وحدة كاملة، يعده النهائى متناقضا. الذات النهائية تتعايش مع الوحدة الكاملة كتناقض. أو بمعنى آخر: التناقض هو العنصر الرئيسى للمنهج الهيجلى، والوحدة الكاملة هى العنصر الرئيسى للنظام الهيجلى.

فى كل لحظة تدعو الوحدة الكاملة إليها كل ما سيكون: وكيانها، الذى يتحرك منذ البداية، موجود فى كل كائن محدد وكأنه وسيلة لتعذيبه: عدم اكتماله ككائن نهائى هو المحرك نحو التطور. ولكن عدم الاكتمال هذا لا يوجد إلا بالرجوع إلى الوحدة الكاملة. قال هيجل بدون مواربة: «بالتوجه إلى جوهر الأشياء، سنجد أن التطور متداخل مع النطفة». إذن فإن الوحدة الكاملة موجودة مسبقا فى لحظات الخلق وتكوينها: التناقض ما هو إلا جزئيات الوحدة الكاملة.

هذا التصور الهيجلى للوحدة الكاملة يتضمن إذن:

١ـ وجود عالم وتاريخ مكتمل .

٢ـ إدراك هذا الاكتمال ، وبدونه لن تتحقق الدورة الضرورية للمعرفة المطلقة .

من قصيدة هيراقليد إلى علم ظواهر النفس ثم إلى كتاب المنطق لهيجل ، تم تناول الفكر والواقع ، في وحدتهما الحية ، كوحدة عضوية كاملة في عملية تكوين مستمرة ، مع تناقضاتهما ، كل شكل يعد لما يليه في دورة لا تتوقف من المولد إلى النمو ثم الموت .

في رأى هيجل ، الفكر يبدأ من مبادئ ثابتة . وينتهي في وحدة كاملة منتهية . ذلك ما بقى من الفكر اللاهوتي في نظامه ، في تناقض مع منهجه .

لقد أتم هيجل فلسفة الذات وأوصلها إلى نهايتها كاملة متكاملة : تلك الفلسفة التي منذ عهد سقراط ، قلصت الذات إلى فكرة ، والأخلاق إلى منطق .

كان ماركس يقول وبحق : إن هيجل «كان نهاية الفلسفة» . على الأقل فلسفة الذات .

هؤلاء الذين يدّعون الاستمرار في ذلك الطريق ، بعد النتائج العظيمة التي توصل إليها هيجل ، لن يكون لهم أي سلطة على التاريخ ، فكل منهم يستغل ما كان مجرد لحظة في فلسفة هيجل . ويستطيع المرء أن يقول عنهم ، كما قال رى بلاس Ruy Blas عن خلفاء شارل كينت Charles Quint :

«. . حفنة من الأقزام المشوهين يفصلون لأنفسهم سترة فى معطف الملك».

***

٢ ـ عالم بدون الإنسان: أوجوست كومت والإيجابية

إن شهادة وفاة الفلسفة، التى كانت تدعو إلى البحث عن معنى وأهداف فكر وفعل الإنسان، وقّع عليها أوجوست كومت Auguste Comte (1798- 1857).

فما سمح لنا بفهم وحدة أعماله، كان همه الأساسى: الثورة الفرنسية أنهت النظام الإقطاعى والكهنوتى: وذلك يعد تقدما. وأقامت نظاما جديدا، تأسس على العلم والتكنيك والصناعة، التى هى نهاية التاريخ. ولا يجب بعد ذلك أن نهدد وجودها بثورة أخرى مثل ثورة ١٨٤٨ . فى ذلك التاريخ أعلن كومت شعاره: النظام والتقدم.

احتفلت الثورة الفرنسية بعصر العقلانية الصناعية. وذلك يتضمن التقدم. أما النظام فمهمته الحفاظ عليه. لذا لم يتردد أوجوست كونت، فى كتابه نداء إلى المحافظين، أن يتوجه إلى قيصر روسيا وكبير الوزراء التركى، من أجل إعاقة أى محاولة لثورة جديدة والحفاظ على النظام القائم.

ومنذ عام ١٨٢٢، نشر كتابه: **خطة للأعمال العلمية الضرورية من أجل إعادة تنظيم المجتمع** الذى يضم ملخصا لنظامه المستقبلى الذى طرحه فى ثلاثة كتب أساسية: **طريق الفلسفة الإيجابية (١٨٣٠ـ١٨٤٨)**، ونظام

السياسة الإيجابية (١٨٥١ـ١٨٥٤)، وأخيرا بشكل مختصر، تعليم الإيجابية (١٨٥٢). الأول عن العلم، والثانى عن السياسة، والثالث عن الدين الجديد الذى تأسس على الأول والثانى.

العلم هو العصر: آلية وتصميم: إنه العلم الذى طرحه لاپلاس Laplace (1799- 1827)، أحد مؤسسى مدرسة اليوليتكنيك (التى ظل أوجوست كومت يجسد روحها) فى كتابه: **عرض لنظام العالم** (١٧٩٦) الذى أعيد طبعه فى عام ١٨٢٤، وأوضح فيه النتيجة المركبة لكل المعرفة المادية التى يسيطر عليها التفسير المتعسف للتصميم الآلى: «يجب علينا أن نتأمل الوضع الحالى للكون وأيضا تأثير وضعه السابق، كسبب لذلك الذى سيليه. الذكاء، الذى من شأنه أن يدرك فى لحظة ما، كل القوى التى تحيى الطبيعة ووضع الكائنات التى تشكلها، فإذا كان هذا الذكاء كبيرا إلى الحد الذى يخضع معطياته للتحليل، فسيحتضن بنفس الصيغة التحركات التى تقوم بها أحجام الكون الكبرى، وأيضا أصغر وأخف ذرة. فلن يكون هناك شيئا غامضا بالنسبة له، والمستقبل، مثل الماضى، سيكون واضحا أمامه». (**مقال فلسفى حول الاحتمالات**، نشر فى عام ١٨١٢).

استبعاد كل سبب نهائى على مستوى الفيزياء، ذلك هو ما وضعه أوجوست كومت كقانون عالمى، يطبق على الإنسان نفسه وعلى العلوم التى تهمه، مثل الاقتصاد السياسى وعلم الاجتماع، (الذى يطلق عليه أيضا: الفيزياء الاجتماعية)، كما يطبق على نفس الوسائل، أى نفس الإصرار الآلى، مستبعدا، من حيث المبدأ، كل تساؤل حول المعنى.

وهكذا ففى كتابه قانون الأحوال الثلاثة : رفض الحالة اللاهوتية لأنها تطرح سؤال لماذا؟ ولا تكتفى بالسؤال كيف؟ هذا العصر اللاهوتى امتد فى نظره من أصول الإنسانية حتى القرن الثالث عشر، متجاهلا تماما حكمة غير الغربيين. (لقد قام بإصدار نشرة غربية).

العصر الميتافيزيقى لا يضم إلا فترة انتقال واحدة، الترجمة المطلقة للرؤية اللاهوتية.

العصر الإيجابى هو ذلك حيث اقتصر الإنسان على متابعة الموجود واستخلاص القوانين منه : «المعرفة من خلال الأسباب استبدل بها تصميم القوانين».

لذا، لم يعد هناك مكان فى فلسفة التاريخ هذه، إلا للتقدير الكمى للحاضر من أجل التنبؤ بالمستقبل. وهكذا أصبح أوجست كومت أبًا لذلك العلم الشمولى للمنظور التكنوقراطى، وفى النهاية لعلوم التقنية التى تؤمن أن العلم (الموجود فى الكمپيوتر) يمكنه أن يجيب عن كل الأسئلة، ليس فقط حول الوسيلة ولكن حول الهدف، ومنذ أن عدّ نوربير ڤيينر Norbert Wiener، مخترع الشبكة الفضائية، المجتمعات الإنسانية معقدة بحيث إنه لا يمكن للإنسان أن يديرها، وأنه يجب تسليمها إلى الآلات لإدارتها بدلا منه، مستبعدا كل قرار للإنسان: سيصبح غير منطقى إذا أراد تغيير مسيرة التاريخ.

ولكن المسألة تتعلق مرة أخرى بمحاولة إيقافه. فعن طريق حبس المعرفة فى المعطيات، فإنه يحبس الفعل فى النظام القائم.

إنهـا أسـاس كل سـيـاسـة المحـافظين ، كـمـا رآها شـارلز مـوراس Charles Maurras . بالإضـافة إلى أن هذا النظام العـملى ، سينغلق داخل أحد الأديان كما يراه أوجوست كومت .

فى كتابه تعليم الديانة الإيجابية ، وضع فكرة ما يمكن أن نطلق عليه مـسيـحيـة بدون إله ، وذلك بتبـديل كل النظام الطبـقى ، والشـعـائرى والعملى ، للكنيسة الكاثوليكية فى عصره ، من أجل كنيسته الإيجابية .

لذا ، استطاع أوجوست كومت ، أن يحتفل فى الوقت نفسه بتتويج ودفن ، فلسفة الذات .

الانفصال الثالث

بعد خمسة قرون من الاستعمار، وحربين أهليتين أوروبيتين (حرب ١٩١٤ـ ١٩١٨ وحرب ١٩٤٠ـ١٩٤٥) جاء الانفصال الثالث للغرب. إنه عصر العالمية أى أغربة العالم ـ (جعله غربيا) ـ تحت قيادة أمريكا، التى نجحت من وجهة النظر الاقتصادية فى أن تكدس فى عام ١٩٤٥ نصف ثروات العالم على حساب أوروبا، بعد نزيفها من الأطلنطى إلى الأورال، وعلى حساب عالم ثالث جائع.

من وجهة النظر السياسية، فإن تلك الدولة التى لم تعان ـ إلا من الحد الأدنى من الخسائر البشرية، أرادت أن تسود العالم، ففرضت قانونها على أوروبا، التى تسولت منها برنامج مارشال الذى فتح أمام أمريكا سوقا أوروبية دمرتها الحرب، وفرضت فى بريتون وودز هيمنة الدولار ليصبح بنفس قيمة الذهب، وبعد خمسين عاما، طرحت معاهدة ماستريخت التى تعنى بدون مواربة أن «أوروبا لن تكون» إلا «دعامة أوروبية فى حلف الأطلنطى» (أى بوضوح، أن تخضع أوروبا للقوانين الأمريكية كما نصت عليها قوانين هيلمز ـ بورتون وداماتو، وتفرض القوانين على العالم كله عن طريق فرض قوانين الحظر).

لقد ولد القرن العشرون متأخرا بضع سنوات، فى حريق عام ١٩١٤ - تلك الحرب التى لم تفرز منتصرين. أما فى سنوات ما قبل الحرب، كان العالم يرقص فوق براكين خامدة عند الخط الأزرق فى فوج وفى كوميون باريس. لقد أيقظ الكوميون الآمال السامية لهؤلاء الذين لم يكن لديهم آمال، وأيقظ الرعب المتوحش لدى هؤلاء الذين كانت لديهم آمال. ولكن الآمال لم يكن لها مكان هناك.

لم يعد هناك إلا الدمار، وصروح الموتى، ووعى عام بانهيار كل القيم.

وعلى جانبى نهر الراين شهدت الحياة الاجتماعية تراجعا تاريخيا امتد مائة عام: من ناحية مع الحجرة الزرقاء بلون الأفق فى مواجهة غضب الإضرابات عن العمل فى عام ١٩٢٠، ومن ناحية أخرى مع القمع المتوحش لسبارتاكوس وهؤلاء الذين جسدوا الأحلام: لايبنيخت Liebnecht وروزا لوكسمبورج .Rosa Luxembourg

ولكن بعد الظلمات، بزغ يوم جديد، ومعه آمال سامية جديدة للشعوب التى تعمل على كسر أصفاد المستبدين القدماء، وللفنانين، والشعراء والمفكرين، أمثال أناتول فرانس Anatole France وأراجون Aragon ولانجفان Langevin ورومان رولان Romain Rolland، الذى حيا الفجر. وفى المواجهة كان هناك الرعب الكبير الذى نشره الأسياد الذين حاولوا كبح بزوغ المستقبل، وذلك من خلال فرض سياسة الأسلاك الشائكة مع كليمنصو Clemenceau، أو مشروع تشرشل لقمع موسكو مع تذكيرها بكل فتات الماضى من أجل منع مولد شيء آخر مختلف عما هو قائم.

القرن كله سيطر عليه هذا الخوف الكبير وأيضا التعهد ببناء عالم آخر. ومن خلال تزايد الإحساس باليأس وتزايد غضب المهزومين: جاءت معاهدة ڤرساى تحمل داخلها البذرة لمجزرة جديدة استطاع أن يتنبأ بها لورد كينز فى كتابه: النتائج الاقتصادية للسلام (١٩٢٢) إذ قال وقتها: **«إذا كنا نسعى قاصدين لإفقار وسط أوروپا فإننى أستطيع أن أتنبأ بأن الانتقام سيكون قاسيا: وفى غضون عشرين عاما سنشهد حربا تدمر الحضارة أيا كان المنتصر»**.

عندما فرض على ألمانيا أن تسلم نصف ثرواتها تحت مبرر التعويضات، كان ذلك إنذارا ببدء الإعداد لإغراق شعب كامل: اليأس والمهانة التى عرفتها القلوب، عواصف الانهيار والبطالة التى عانت منها أعداد عريضة منه. وجاء استفزاز المنتصرين يهيج الرغبة فى الانتقام ويفجر النداء بأن كل شىء أفضل من ذلك الذى شجع انتصار الديماجوجية القومية فى شكلها الأكثر جموحا، والرغبة بأى ثمن فى الخروج من الفقر والبطالة. كان يكفى ١٦ عاما من تفاعل هذا الخليط من الثقافات، لكى ينتصر الإنسان الأرقى. لقد وصل إلى الحكم بأكثر الوسائل ديمقراطية فى العالم وحصل مع حلفائه على الأغلبية المطلقة فى برلمان جمهورية فايمر.

لقد أوضحنا فى كتاب آخر، التوازى الدقيق فى الخط البيانى الذى يشير إلى زيادة البطالة وذلك الذى يشير إلى تقدم القومية الاشتراكية.

وجاء هتلر ليحل المشكلة التى جعلت منه زعيما، فلقد حول العاطلين إلى عمال فى مصانع السلاح، ثم إلى جنود، ثم هؤلاء الجنود إلى جثث. وبذلك تم حل المشكلة.

اكتملت الظروف بحيث تصبح الحرب العالمية الثانية استكمالا للأولى : نتيجة للعمى الذى أصاب المنتصرين ، والزهو الذى حل عليهم بعدما انتصروا على المنافس الاقتصادى والسياسى لكل من إنجلترا وفرنسا .

(أ) الولايات المتحدة، رائدة الانحطاط

عاملان جديدان ، قاما بتغذية الحريق وجعلا الانفجار الهائل مسألة لا يمكن تفاديها .

العامل الأول فى الغرب حيث ولدت قوة جديدة ، الولايات المتحدة ، التى عدّت حرب ١٩١٤ـ١٩١٨ مسألة اقتصادية لم يسبق لها مثيل إلى حد أنها حولتها إلى قوة عظمى .

والولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة فى العالم التى ، منذ إنشائها ، لم تعرف أبدا الاستعمار الأجنبى على أرضها ، وجمعت الثروات من كل مآسى العالم : منذ طرد وذبح الهنود إلى استغلال عمالة العبيد السود ، إلى الدخول محل إنجلترا فى أمريكا الجنوبية وإسپانيا فى الجزر . خسائر أوروپا فى حرب ١٩١٤ـ١٩١٨ جعلت الذهب يتدفق على الجانب الآخر من الأطلنطى : ومن خلال البيع والقروض أصبحت أمريكا منذ ذلك الحين قوة على أعلى مستوى . ولم يعد أمامها إلا أن تسرع إلى الإنقاذ من أجل الانتصار النهائى فى عملية الإنزال فى عام ١٩١٧ ، بعد فيردان ، كما أسرعت إلى انقاذ الانتصار مرة أخرى فى عام ١٩٤٤ بعد ستالينجراد . كانت على يقين

أنها هكذا ستكون فى جانب معسكر المنتصرين، بأقل التكاليف الممكنة، وأنها ستهيمن على أوروپا التى نزفت دماؤها من الأطلنطى إلى موسكو، وغطت أراضيها الجثث والأطلال، بعد أن فقدت خمسين مليون إنسان.

أما العامل الثانى الجديد فكان فى الشرق. حيث الاتحاد السوڤييتى الذى واجه وحده - فى عام ١٩٤٤ - ٢٣٦ وحدة عسكرية نازية وحلفاءها بينما كانت ١٩ وحدة منها فقط تواجهها قوات الحلفاء فى إيطاليا، و٦٥ متفرقة ما بين فرنسا والنرويج.

منذ تولى هتلر السلطة، عدّته كل من الولايات المتحدة وفرنسا وإنجلترا، كما قال الأساقفة الألمان، «أفضل عائق أمام البولشفية»، وأمدوه بالسلاح والمال (فأمدته فرنسا بالحديد لصناعة مدافعه حتى عام ١٩٣٨، وإنجلترا تفاوضت معه حول القروض حتى عام ١٩٣٩، والولايات المتحدة احتفظت بسفيرها فى فيشى).

بالإضافة إلى ذلك، استسلمت الدول لكل مطالبه: فسمحوا له بدون تدخل منهم باحتلال إقليم بوهيميا وتفتيت تشيكوسلوڤاكيا، وتحقيق الأنشلوس (ضم النمسا إليه)، والاشتراك فى إسپانيا فى اتفاق عدم تدخل سمح له بالتدخل، مع شريكه موسولينى وفرقته الخاصة كوندور، حتى حدود جنوبى فرنسا فى جويرنيكا.

كانت ميونيخ رمزا لكل تلك التنازلات، البديل التشيكى لخط ماجينو، يحدوهم الأمل الواضح فى تحويل شهوة الوحش المفترس إلى الشرق والاتحاد السوڤييتى. وهؤلاء الذين شاركوا فى ميونيخ،

ساندتهم الديكتاتورية البولندية فى منع الاتحاد السوفييتى من المرور عبر أراضيها لمواجهة هتلر قبل أن يصل إلى الحدود الروسية بعد غزوه بولندا. فلم يعد أمام ستالين، لكيلا يضطر إلى مواجهة كل الثقل الألمانى الذى أصبح تقدمه مسألة وقتية، إلا أن يكسب بعض الوقت عن طريق توقيع معاهدة عدم اعتداء، مماثلة لتلك التى وقعت فى ميونيخ، من أجل أن يستعد لحرب لم يعد من الممكن تفاديها.

وهكذا نجح هتلر فى ألا يفتح جبهتين، واستطاع أن يلتهم الغرب قبل الإسراع إلى الشرق السوفييتى.

أما بالنسبة للولايات المتحدة، فلقد حدد السناتور ترومان (الذى أصبح بعد سنوات قليلة رئيسا للولايات المتحدة) الخط الدائم للسياسة الأمريكية: **«إذا ضعف الاتحاد السوفييتى يجب مساعدته، وإذا ضعفت ألمانيا فيجب مساعدتها. المهم أن يدمر بعضهما بعضا»**.

إنه من المهم القول إننى عندما قرأت تصريحات ترومان هذه فى إذاعة راديو فرنسا فى الجزائر حيث كنت رئيس تحرير الأخبار الصباحية المقروءة منذ الإفراج عنى من معسكر الاعتقال، طردت من منصبى بأمر من الممثل الأمريكى مورفى، برغم موافقة الجنرال ديجول على النص. (انظر المجلد رقم واحد من كتاب **رحلتى منفرداً خلال القرن**).

ولقد تحققت دعوات ترومان بشكل جعل الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، التى شهدت تدميرا أكبر كثيرا من الحرب الأولى، تزدهر اقتصاديا بسبب خطة مارشال، التى جعلت من أوروبا المدمرة عميلا للحل الجديد.

وهكذا سيطرت على الثلث الأخير من القرن حرب باردة بين الولايات المتحدة الثرية والاتحاد السوفييتى، الذى كسر الجيش الألمانى فى ستالينجراد وطارد العدو حتى برلين، حيث اضطر هتلر إلى الانتحار فى مخبئه عند بوابة براندنبورج. وبعد إعلان الحرب الحقيقية لوينستون تشرشل، فى خطابه فى ڤولتون، حيث أعلن أنه تم «قتل الخنزير الشرير»، أى ألمانيا الهتلرية بدلا من الاتحاد السوفييتى وستالين، استمر سباق التسلح مع الولايات المتحدة فى الفضاء، وكان نجاح الواحد، مثل صعود جاجارين أول رائد فضاء، يثير دائما حماسة المنافس الآخر إلى أن وصلا إلى الذروة فى حرب الكواكب التى تخيلها ريجان.

لقد استهلك الاتحاد السوفييتى قواه عندما اضطر لأن يتحمل الثقل الأساسى فى الحرب ضد هتلر: فخرب الغزاة أراضى أوكرانيا الخصبة، كما دُمرت المراكز الصناعية الأكثر نشاطا. أما الولايات المتحدة التى جمعت أكبر الأرباح من المذبحة الأوروبية، فقد استطاعت أن تفوق الاتحاد السوفييتى فى القوة.

ومن أجل أن تتحمل كل هذا المجهود، قام الزعماء السوفييت بتبنى منهج التنمية الغربى، متجاهلين بذلك كل التعهدات بالاشتراكية. وماتوا بسبب انفجار النظام من الداخل.

لقد قابلت جورباتشوف بعدما فجر الانهيار بسنوات طويلة. وكانت الرأسمالية فى الاتحاد السوفييتى التى أسرع بتطبيقها البغاء السياسى الذى مارسه يلتسين مع مستشاريه الأمريكيين (أمثال سوروس)، قد بدأت تجنى ثمارها المتوقعة: تراكم الثراء عند قطب

واحـد من المجـتـمع والبؤس عند الآخـر . وبدأ المرء يتـابع نمو ثروات رجال المافيا فى سرعة نمو الفطر ، وأصبحت موسكو سوقا جشعة لسيارات الرولزرويس . وفى الوقت نفسه ، انتشرت البطالة ، والانعزال والتسول والفساد والجريمة . وهكذا استطاع الاتحاد السوفييتى القديم أن يلحق بأمريكا فى قضية أساسية : تضاعفت تجارة المخدرات أربع مرات خلال عامين اثنين .

فى حديثى مع جورباتشوف ، أعربت عن الأمل الذى شعرت به عندما قرأت كتابه «بيريسترويكا» ، الذى أعرب فيه عن أهداف النظام الاشتراكى الحقيقية : وهى إعطاء معنى ليس فقط للعمل ولكن للحياة بأكملها ، التى اغتربت بسبب وحدانية السوق . كان هناك معنى جديد عندما كتب على سبيل المثال هذه القصة ملخصا المعارضة لتجربة العمل فى ظل نظام السوق ، أى الغابة ، أو فى ظل النظام الإنسانى ، أى الإلهى : «تقدم أحد المارين إلى مجموعة من الناس فى أثناء قيامهم ببناء مبنى ، وسألهم قائلا : «ماذا تفعلون؟» فأجابه أحدهم بعصبية : «كما ترى ، من الصباح وحتى المساء علينا أن ننقل تلك الأحجار الملعونة . . » .

ووقف آخر وقال بفخر : «كما ترى ، إننا نبنى معبدا !» (ص ٣٦ـ٣٧)

لقد استطاع ماركس أن يفرق بين : نظام اجتماعى ، وهو نظام السوق ، الذى يقلص الإنسان إلى حجمه الحيوانى فقط : التعامل معه كوسيلة ، وبين نظام تأسس على ما هو إنسانى فى الإنسان : أى إدارك الأهداف التى تسبق إدارة الوسائل وإعطاؤها معنى . (رأس المال

المجلد الأول، والخامس عشر، ١). الرجل وعمله الذى استغل كوسيلة، بدون أن يدرك الهدف والقيمة الإنسانية لما يعمله، يمكن أن يستبدل به حمار أو آلة، لأنه يصبح مجرد قوة محركة.

والخطأ التاريخى القاتل الذى ارتكبه جورباتشوف هو أنه بدأ بإصلاح الوسائل، أى الاقتصاد، من خلال تحريرها، أى عن طريق تطبيق الليبرالية، أى الحرية للأقوياء أن يلتهموا الضعفاء، منذ ذلك الحين تحول اقتصاد السوق، أى الاقتصاد المنظم، (أو غير المنظم) بقوانين لاإنسانية، إلى نظام كل شىء فيه يباع ويشترى (من الكوكايين إلى ضمير الإنسان) حسب الربح الذى يريد المرء أن يحصل عليه. وخلال ثلاث سنوات أصبح هذا الاقتصاد السبب فى التفكك الذى أصاب كل العلاقات الإنسانية. تصور جورباتشوف أنه كان على وشك أن يصلح الاشتراكية، ولكن ما حدث كان عودة الرأسمالية، وأسوأ من ذلك: ليس الرأسمالية الشابة التى رغم نظامها المالى اللاإنسانى، تستثمر على الأقل فى اقتصاد حقيقى، وتؤسس شركات ومصانع؛ ولكنها رأسمالية فاسدة، حيث المضاربات تسحب من الإنتاج ٨٠ ٪ من رءوس الأموال، وحيث التخطيط يستبدل به الفساد (التخطيط الذى أصبح قديما وغير واقعى فى المرحلة الانحلالية للاتحاد السوفييتى).

تلك الأولوية التى حظى بها الاقتصاد الليبرالى (أى إلى عالم بلا إنسان) أدت إلى تفكك كل أسس المجتمع، وأدت بالتأكيد إلى عدم المساواة، وكسر كل آليات الدولة لصالح قوميات مجزأة ومصالح أجنبية احتكارية، وجشع الفرد.

إن ذلك يعنى عدم إدراك الجوهر الأساسى لماركسية ماركس، وهو إعطاء الأولوية إلى المبادرات التاريخية التى تعنى بالإنسان، بدلا من التخلى عنه لصالح إصرارية قوانين السوق، التى شنت منذ البداية، حرب الجميع ضد الجميع باسم الحرية التى اختلط أمرها مع المنافسة الداروينية بين الذئاب.

بعد ماركس، استطاع لينين أن يرى الدور الأساسى للضمير. ولكن فى روسيا عام ١٩١٧، الطبقة التى تحمل تاريخيا هذا الضمير لم تكن عمليا موجودة. وعندما تفجرت ثورة أكتوبر عام ١٩١٧، كانت طبقة العمال تمثل فى روسيا أقل من ٣٪ من المواطنين العاملين. وهكذا تكون حزب يدّعى أنه يعبر عن ضمير طبقة غير موجودة. ومن هنا بدأ الانهيار التالى: حزب أراد أن يكون فريدا (فى مواجهة الفكر الثابت لماركس منذ تكوين الدولية الأول)، عدّ نفسه ضمير طبقة اجتماعية، ثم تكلم الزعماء باسم هذا الحزب، ثم أخيرا أصبح شخصا واحدا بدلا من السلطة الجماعية التى لم تعد انتخابية ولا تعبر عن رغبة القاعدة العريضة (السوڤييت).

وسواء أكان ذلك للأحسن أم للأسوأ (كان للأسوأ فى أغلب الأحيان) فقد أصبح هذا الحزب العمود الفقرى للدولة. وأصبح من حيث المبدأ، ضميرها. فتمكن على هذا المستوى، مستوى الضمير، من القيام بإصلاح النظام من خلال ثورة ثقافية حقيقية داخل الحزب. وفى مرحلة معينة من تاريخ الاتحاد السوڤييتى (فى تلك اللحظة حيث كان المستوى الثقافى للغالبية العظمى من الشعب، واكتشافات علمائه

وباحثيه الذين استطاعوا فى مجالات تمتد من الطب إلى غزو الفضاء، وضع الاتحاد السوڤييتى على نفس المستوى مع الكبار) أزف الوقت لكى يُحدث تغييرا جذريا لفكرة الحزب. فكل الأوامر لم تعد تأتى من أعلى، ولكن بالعكس فقد باتت تأتى من جماعات القاعدة (السوڤييت - أى مجالس الفلاحين، والعمال، والفنانين، والعلماء، والباحثين، فى جميع المجالات) حتى تستلهم المبادرة لبناء مستقبل اشتراكى بحت من تجارب هؤلاء الذين يتعاملون مباشرة مع الواقع ويسيطرون على تطوره.

هذا الخطأ الأساسى، والذى يكمن فى عدم القيام من البداية بتغيير جوهرى داخل الحزب (وليس فى الاقتصاد) أدى إلى الانهيار التام.

لقد انهار الاتحاد السوڤييتى تحديدا لأنه لم يُعر منهج ماركس اهتماما، واكتفى بتكرار تعاليمه: لقد وضع ماركس القوانين استنادا إلى التنمية الرأسمالية الإنجليزية فى القرن التاسع عشر. ولقد قامت الزعامات ومدّعو واضعى النظريات السوڤييت، بتكرار كامل وفعلى لنظريات ماركس، وقاموا فى القرن العشرين، بتطبيق نماذج التنمية الرأسمالية الإنجليزية فى القرن التاسع عشر. هذا الانهيار لا يعنى أبدا فشل ماركس، ولكن فشل التفسير المتطرف لماركس الذى أدى إلى تقليد أساليب نمو الرأسمالية التى اعتمدت على استغلال ثروات ثلاثة أرباع العالم (والذى أطلق عليه العالم الثالث).

الاتحاد السوڤييتى انهار لأنه خان ماركس، ولأنه قام بتطبيق نموذج للتنمية الرأسمالية.

لقد أصبحت ماركسيا؛ لأن ماركس لم يكن دينا ولا فلسفة ولكن منهجا للمبادرة التاريخية التى تسمح لنا بأن نخلص إلى تناقضات مرحلة أو مجتمع، وانطلاقا من هذا التحليل، نكتشف الوسائل القادرة على تجاوزها.

كان هناك خبيران كبيران لتحليل الرأسمالية: آدم سميث وكارل ماركس. نظرية آدم سميث تقول إنه إذا سعى كل فرد لتحقيق مصلحته الشخصية، تحققت المصلحة العامة، وهو ما يقود إلى سعادة الجميع.

وكارل ماركس الذى درس بعمق آدم سميث، قال إن الرأسمالية الليبرالية، على الرغم من أنها تخلق ثروات كبيرة، فإنها فى الوقت نفسه تخلق فقرا كثيرا بين العامة، وعدم مساواة متزايدا. اليوم، فى أمريكا، حيث ١٪ من الشعب يملك ٤٠٪ من الثروة القومية، وفى العالم حيث ٧٥٪ من الثروات الطبيعية موجودة فى العالم الثالث، ولكن يسيطر عليها وتستهلكها ٢٥٪ من شعوب العالم، من السهل أن نعرف من منهما كان أحق: آدم سميث (الذى ترددت أفكاره فى القرن العشرين من خلال بعض المدعين الليبراليين أمثال فريدمان فى الولايات المتحدة، وريمون بار، مترجم أعماله فى فرنسا) أم كارل ماركس؟ الإجابة واضحة، إنه كارل ماركس، ولذلك ظللت ماركسيا لأن المرء لا يستطيع أن يفهم أى شىء عن الأوضاع فى عالم اليوم وعدم المساواة المتزايدة فيه بدون استخدام مناهج ماركس، وليس مناهج آدم سميث، أو فريدمان أو فون هايك.

لذا، فإن القرن العشرين لم يشهد فشل اشتراكية ماركس، ولكن فشل نموذج التنمية الذى انبثق من تلك اللامساواة والتى بسببها يموت سنويا ٤٥ مليون إنسان (منهم ١٣ مليونا ونصف مليون طفل - حسب إحصاءات اليونيسيف) بسبب الجوع أو سوء التغذية. وذلك يعنى أن النظام الحالى لنمو الدول الغربية (تحت قيادة الولايات المتحدة) يكلف العالم ما يساوى عدد موتى يماثل هيروشيما واحدة كل يومين.

وأكرر: هيروشيما واحدة كل يومين.

لا يمكن أن نتخيل إدارة أكثر فداحة للكون تحت سيطرة أسوأ عدو للإنسانية: الزعماء الأمريكيين، من ريجان إلى كلينتون، الذين يُعَدّون، مع المرتزقة الإسرائيليين والإنجليز، أسوأ إرهابيين فى العالم. **هناك لغة مشتركة بين هتلر وكلينتون ونيتانياهو، فثلاثتهم يطلقون لقب إرهابى على من يقاوم الاحتلال الأجنبى.**

على العكس من الحلم الأول لماركس ومناضلى أكتوبر عام ١٩١٧، نتجت أوضاع موضوعية (كما فى الماضى انحطاط المثل منذ عصر النور وعام ١٧٨٩، إلى الرعب الجاكوبى، ثم تعفن الديركتوار وأخيرا إلى الديكتاتورية النابليونية، فخرجت فرنسا من كل ذلك مشوشة معنويا لما شهدته فى عصر الإصلاح بكل ما صاحبه من تراجع اجتماعى، وعدم مساواة خطير، مثلما حدث فى روسيا اليوم بعد إصلاح الرأسمالية).

الانحرافات الأساسية جاءت أولا من التداخل المستمر بين مشكلات بناء الاشتراكية وتلك الخاصة بالتنمية، فلم تطبق الاشتراكية بعد رأسمالية حققت نموا كاملا كما تصورها ماركس، ولكن بعد رأسمالية

متخلفة ، كما كانت روسيا . وضاعف من تعقيد الوضع فى روسيا التدخل الخارجى وحالة الحصار التى فرضتها عليها الدول الرأسمالية .

قال ونستون تشرشل مزهوا بنفسه ، فى كتابه : **أزمة العالم** (لندن ١٩٢٩) إنه نظم ضد دولة السوڤييت ، «حملة من ١٤ دولة» .

الرقم ١٤ ، يعيد إلى الأذهان الجيوش الأربعة عشر التى أدمجتهم أوروپا فى عام ١٧٩٢ تحت قيادة دوق برونزويج ، من أجل قمع پاريس والثورة الفرنسية . فى فرنسا ، أعلن كليمنصو أن عليه فى مواجهة روسيا الحمراء بتطبيق : «سياسة الأسلاك الشائكة» .

بينما أضاف تشرشل بطريقة أكثر عدوانية : «إقامة نطاق صحى والانقضاض على موسكو» .

هذا الحظر تسبب فى تجويع الشعب الروسى (جائعو الڤولجا لأناتول فرانس الذى حصل على جائزة نوبل فأرسلها لهم) . وأخيرا مقاومة الحصار ، وزيادة التسلح ، والتهديدات المستمرة للمناخ الكريه لزعماء الدول المتقزمة ، دعا إلى تطبيق سياسة تسليح على أكبر مستوى : قال ستالين فى عام ١٩٣٠ فى المؤتمر السادس عشر للحزب البولشفى : «إننا فى حاجة إلى ١٧ مليون طن من الصلب . . ويجب أن نعوض هذا التخلف خلال عشر سنوات وإلا نجحوا فى تدميرنا» .

تحقق هذا الهدف فى عام ١٩٤١ ، بتكلفة بشرية مخيفة دفعها الشعب السوڤييتى . ولكنه إن لم يكن قد فعل ذلك ، فمن كان سيحطم الجيش النازى فى ستالينجراد؟

الحقيقة أن تلك السياسة العنيفة أدت إلى سياسة تسلح أدت بالتالى إلى فوضى فى الاقتصاد ودفعت بالرجال إلى السجون.

إن كل تلك المتناقضات الداخلية والنظريات المتطرفة للزعماء قادت إلى انفجار النظام.

* * *

لقد أنهكت الحرب العالمية الأولى أوروبا، وجعلت من الولايات المتحدة قوة اقتصادية كبرى.

والحرب العالمية الثانية كانت بالنسبة للولايات المتحدة أجمل الأحداث: فقد كانت هى الدولة المانحة لأوروبا، ولأن دماء أوروبا كانت تنزف مرة أخرى، فقد باتت هى الدولة القارضة والمستثمر الذى ليس له مثيل، فزادت قوتها الاقتصادية بنسبة ٤٠٪ بفضل تلك الحرب العالمية الثانية، وبنسبة ٧٪ أخرى بفضل حرب كوريا.

واليوم، الإغراءات تدور لها العقول، إذ حدث فى الوقت نفسه أن انهارت فى الشرق كل الإمكانات للمقاومة، وبالنسبة للقوتين الاستعماريتين القديمتين اللتين كانتا فى الماضى فى صراع مستمر، وهما إنجلترا وفرنسا، فقد اكتفيتا اليوم - أو على الأقل زعماؤهما - بدور الإمداد للجيوش الأمريكية فى المشروعات التى لم تعد تضع الشرق والغرب فى مواجهة بعضهما بعضا، ولكن الشمال والجنوب.

وهكذا بدأ عصر جديد من تمزق الكون بين غرب متحالف، من المحيط الهادئ إلى الأورال، من أجل استمرار هيمنة الشمال على الجنوب.

وكانت حرب الخليج هى «البروفة» الأولى التى تعلن خطر الحرب بين دول العالم. ولقد أوضح الكشف تدريجيا عن أهداف حرب الولايات المتحدة، الكثير من الأمور: ففى حين تدّعى أولا الدفاع عن القانون الدولى، تتناساه من وقت لآخر عند كل عملية غزو، ولم يعد من الممكن إقناع أحد غير السذج الذين خدعتهم وسائل الإعلام، بأن تلك الحرب لم تكن حرب بترول، المبدأ الذى تقوم عليه كل تنمية فى الغرب.

ثم تم الاعتراف بالهدف الحقيقى: تدمير قوة العراق، الدولة الوحيدة من دول العالم الثالث التى قد تملك الوسيلة لمنع الغرب وإسرائيل من تحقيق أهداف الهيمنة على الشرق الأوسط.

لقد كانت حربا استعمارية حقيقية.

والشعب العراقى، من خلال الحرب الاقتصادية حرم من نصف ميزانيته، بعدما انخفض سعر البترول ٧ دولارات للبرميل، وأصبح مصيره الانهيار.

ولكن الضعف السياسى الذى أصاب صدام حسين، بعدما وقع فى الفخ الذى نصبته له الولايات المتحدة مرتين (من خلال غزو إيران ثم عملية الكويت) قدم للمصنع العسكرى ـ الصناعى مبررا للتدخل الضخم الذى أعد له منذ ثلث قرن (منذ مشروع تأميم البترول الذى قدمه مصدّق فى إيران).

عندما استقبلنى صدام حسين فى بغداد فى ٥ من ديسمبر عام ١٩٩٠، حاولت ـ خلال ساعتين من الحوار، الذى تم فى حضور اثنين

من وزرائه واثنين من چنرلات القيادة العليا ـ أن أقنعه بشيئين : أولا ـ أنه ليس هناك أى تماثل بينه وبين الأمريكيين . فعلى حدوده هناك جيش ، وفى بلاده هناك شعب . قد يستطيع أن يؤذى قليلا هذا الجيش (افتراض لم يتحقق) ، ولكن هذا الجيش يستطيع أن يؤذى كثيرا شعبه . واستخلصت فى النهاية أن عليه أن يقبل انسحاب جيشه من الكويت ، بشرط أن تحل محله وحدات عربية من الدول المحتفظة بحيادها ، مثل الجزائر أو تونس ، وذلك استعدادا لإجراء استفتاء لكل أبناء الكويت (المهاجرين والمواطنين الأصليين) . وذكرنى باقتراحاته التى قدمها فى ١٢ من أغسطس : أن تنسحب العراق من الكويت إذا طبقت كل قرارات الأمم المتحدة (على سبيل المثال القرارات ضد ضم القدس الشرقية ، والذى نددت به جميع الدول بما فيها الولايات المتحدة) . كان اقتراحه مبررا تماما . ولكن الوسيلة التى استخدمها وهى : الاحتلال العسكرى ، أعطت مبررا للذين يدعون أنهم جنود الحق من أجل تدمير شعب .

منذ نهاية الانتداب البريطانى على العراق (١٩٣٠) أصبحت شركات البترول الغربية (والتى توحدت فى شركة العراق بتروليوم) تملك ٩٤٪ من الآبار العراقية . وعندما قررت الثورة العراقية بقيادة الچنرال قاسم أن تسحب منها تلك المميزات ، فرضت إنجلترا عام ١٩٦١ ، من خلال تهديدها بالتدخل العسكرى ، استقلال الكويت ، وانضمامها إلى الأمم المتحدة فى عام ١٩٦٣ .

ولقد جدد الهجوم الأمريكى وتوابعه على الخليج فى عام ١٩٩٠ـ على مستوى أعلى ـ العملية الاستعمارية لعام ١٩٦١ .

وأطلق الغرب تعبير تحرير الكويت على عودة مُسخّريهم الخانعين والمليارديرات إلى حظيرة الجيش الأمريكى. فلقد تحررت الكويت بالفعل من كل عائق يمنع المضاربات المالية السافرة. واندفع المستعمرون الجشعون الكبار من أجل انتزاع عقود ونصيب من السوق. وحصلت الشركات الأمريكية، على نصيب الأسد. أما الآخرون فلقد اقتسموا ما تبقى حسب نسبة مشاركتهم فى الغزو، والدور الذى لعبته شركات البترول والشركات متعددة الجنسيات فى الانتشار العسكرى الذى سمح باستعادة مميزاتها.

ومثل كل العمليات الاستعمارية، قام الأمريكيون عبر نشر الأكاذيب حول الحرب نفسها، والتى وصفوها بأنها عملية جراحية ومطهرة، بشن حرب كاملة ضد العراق استخدموا فيها كل الوسائل التكنيكية المؤلمة عالية التقنية: همجية تعمل بالكمبيوتر قدمت كأنها لعبة من الألعاب الإلكترونية تعرف أهدافها ولكن المرء لا يرى أبدا ضحاياه الذين مثّل بهم. ولا يحسب إلا الموتى من الأمريكيين أو الإسرائيليين. أما الآخرون فلا يُحسبون.

مثلما حدث فى الماضى، حينما قام المستعمرون الإسپان بممارسة الإبادة الجماعية ضد هنود أمريكا عن طريق تفوقهم التكنيكى باستخدام الأسلحة النارية، ومثل المستعمرين الإنجليز الذين استخدموا الأسلحة الأوتوماتيكية من أجل ذبح رجال المهدى فى السودان، ومثل موسولينى الذى استخدم ضد الإثيوبيين رصاص الدوم ـ دوم الذى يستخدم ضد الذئاب، فالأمريكيون اليوم يجربون

الصواريخ التى توجهها أشعة الليزر، وقنابل الضغط التى تفجر الرئة على بعد عدة كيلومترات، وأسلحة أخرى ذات الدمار الشامل.

إن النسبة بين عدد الموتى فى جيش المستعمر وجيش الدولة المستعمَرة يصل دائما إلى ١ مقابل ألف، وذلك بسبب التفوق التكنولوچى. تلك النسبة نفسها كانت بين الإسپان والهنود، والإنجليز فى الهند، والأمريكيين وڤيتنام، والفرنسيين فى إفريقيا السوداء وفى الجزائر.

القائد الأمريكى أعلن بفخر، بعد وقف إطلاق النار، فى ٢٨ من فبراير عام ١٩٩١، أنه أطلق فى ٤٠ يوما مائة ألف طن من المتفجرات على العراق، أى ما يعادل أربع مرات هيروشيما.

إن محاولة الاحتفاظ بهذا النظام ما بعد الاستعمارى، حيث الغرب، مع خُمس شعوب العالم، يستهلك ويتحكم في ٨٠٪ من الثروات، وحيث نمو الغرب يشير إلى عدم نمو سائر دول العالم - ستؤدى حتما إلى حرب المائة عام الحقيقية بين الشمال والجنوب. فإن العالم الثالث لن يترك نفسه يتدمر بينما العالم الغنى يعمل على بقاء الأزمات بلا حلول وتدمير عملائه من خلال الانهيارات والمجاعات. تقول إحصاءات الأمم المتحدة إن أكثر من ٤٥ مليون إنسان يموت سنويا من الجوع أو سوء التغذية فى العالم الثالث، بسبب لعبة التجارة غير المتساوية والديون.

كتب الزعيم النقابى البرازيلى لولا Lula قائلا: «الحرب العالمية الثالثة بدأت بالفعل. إنها حرب صامتة، ولكنها ليست أقل رعبا..

فبدلا من الجنود، الأطفال هم الذين يموتون، وبدلا من ملايين المصابين، هناك ملايين العاطلين، وبدلا من تدمير الجسور، تغلق المصانع والمدارس والمستشفيات.. إنها حرب أعلنتها الولايات المتحدة ضد القارة الأمريكية وكل العالم الثالث».

وحرب الخليج ما هى إلا تعبير أكثر همجية لتلك الحرب الدائمة.

ذلك هو حجم هزيمة الإنسان الذى أُخفى وراء أكبر عملية غسيل مخ لملايين البشر قام بها القمع الإعلامى: واصفا إقامة نظام عالمى جديد يهيمن عليه عسكريا مجتمع يحمل كل علامات الانحطاط، كانتصار للحضارة ضد الغوغائية.

ها نحن أولاء عدنا إلى زمن انحطاط الجمهورية الرومانية وعودة الإمبراطورية الرومانية مع قطبية متزايدة بين الثراء والبؤس: كان فى روما فى ذلك الوقت ٣٢٠ ألف عاطل، بينما يملك نصف شمال إفريقيا ستة من الوجهاء، تماما كما يحدث اليوم فى الولايات المتحدة، حيث ٥٪ من الأمريكيين يملكون ٩٠٪ من الثروة الوطنية. لقد فرضت القوات ثقل الاستعمار من الأطلنطى إلى آسيا.

إننا نعيش مرة أخرى مرحلة تعفن التاريخ، تلك التى تتميز بالسيطرة التكنيكية والعسكرية القاسية لإمبراطورية لا تدعو لأى مشروع إنسانى قادر على إعطاء معنى للحياة وللتاريخ.

كنا فى حاجة إلى ٣٠٠ عام من التمرد المستتر، حتى يمكن تكوين نسيج اجتماعى جديد وتكوين مجتمعات مستقلة ذات نوعية جديدة.

إن مولد عالم إنساني، بعد عصر ما قبل التاريخ المتوحش الذي مازلنا نعيش فيه تحت تأثير الغوغائية الإلكترونية، لن يولد إلا عندما تدرك الشعوب مساوئ وحدانية السوق وأنبيائها الدمويين.

إن مجرد فكرة التطويع الإعلامي وبخاصة التلفزيون وقدرته على إعطاء ٢٠٠ مليون شخص (منهم ٣٠ مليونا يعيشون تحت خط البشرية) راحة الضمير؛ ليتصوروا أنهم الأفضل في العالم، ويكونوا أهلا ليمثلوا لهذا العالم النموذج الذي يحتذى به، وأيضا الشرطي، هي العلامات الأساسية لذلك الانحطاط الذي يعبر عن نفسه على المستوى الفردي من خلال الجريمة.

تكشف إحصاءات الشرطة في نيويورك أن كل ثلاث ساعات هناك سيدة تغتصب، وكل ساعتين رجل يقتل، وكل ٣٠ ثانية هجوم ينفذ. في أمريكا أكبر نسبة عمليات انتحار للمراهقين وأكبر نسبة جريمة وفيها ٢٠ مليونا من المدمنين.

ذلك هو نموذج الحياة الأمريكية التي يتحدث عنها دعاة الأخلاق عندما نظم السيد بوش صلاة من أجل حملته البترولية.

أسلوب الحياة هذا هو التعبير الحماسي للمال والعنف. وهذه الثقافة اللاإنسانية تصدر إلى العالم كله من خلال الأفلام الأمريكية. إنها أفلام العنف القمعي وسلسلة طلقات الرصاص، أفلام الغرب الأمريكي التي تثير العنف العرقي ومطاردة الهنود، وأفلام العنف لقصص الرعب.

هذه هى القوة التى تملك إمبراطورية العالم .

اليوم أكبر هزيمة للإنسان هى المبدأ نفسه لذلك النظام : وحدانية السوق (أى المال) كمنظم وحيد لكل العلاقات الاجتماعية (من الاقتصاد إلى السياسة ومن الفن إلى الأخلاق) .

إن الحرب الاستعمارية تلك والخطر القاتل الذى يعمل على استمرارها ، قاما بالكشف عن مسئولية الزعماء ومؤسسات عفى عليها الزمن ، مما يسمح لنا بالتمييز بوضوح بين ما يطلق عليه الرئيس بوش : النظام العالمى الجديد (الذى سيكون امتلاك وتقوية الوضع القائم فى العالم تحت الهيمنة الأمريكية) ونظام عالمى جديد حقا هو العكس تماما .

(ب) الولايات المتحدة، مستعمرة إسرائيلية ؟!

العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة ليست من نفس طبيعة علاقة التحالفات العادية بين الدول .

فبين إسرائيل والولايات المتحدة هناك فى الوقت نفسه وحدة جذور ووحدة أهداف ، واستمرارية كهنوتية وسياسية فى رؤية تعاملهما مع العالم ، سواء كان هذا التعامل كشعب مختار مثل الإسرائيليين ، أو كشعب ذى مصير واضح مثل الولايات المتحدة .

هذه الأيديولوچية المشتركة ولدت قبل تكوين الدولة الأمريكية المستقلة ، عندما كانت أمريكا الشمالية لاتزال مستعمرة إنجليزية ، حسب قول النظريين من البيوريتانية الإنجليزية .

في عام ١٦٢١ ، نشر سير هنرى فينش ، قاضى شهير وعضو فى البرلمان ، كتابا بعنوان : **نهضة العالم الكبرى، أو: دعوة إلى اليهود و(معهم) كل الأوطان وممالك الأرض إلى عقيدة المسيح** . فى الكتاب رفض التفسيرات المجازية للعهد القديم التى كانت جزءا من تقاليد الكنيسة الكاثوليكية ، وخاصة عند سان ـ أوجوستان ، وأوصى بقراءة حرفية لها :

«عندما ذكر الإنجيل إسرائيل ويهوذا وصهيون والقدس ، لم يختر الروح القدس إسرائيل الروحانية ولا كنيسة الله التى تضم غير اليهود أو اليهود وغير اليهود معا . . ولكن اختار إسرائيل، تلك التى جاءت من سلالة يعقوب . نفس الشيء يحدث فيما يتعلق بعودتها إلى الأرض بعد انتصارها على الأعداء . . إن تلك ليست قصة مجازية أو تحرير المسيح لها : ولكن ذلك يعنى حقيقة وحرفيا اليهود» .

فى تصور فينش أن تحقق إسرائيل التى أعيد إحياؤها ، الحكم الإلهى الكامل .

فى ذلك العهد ، ندد البرلمان بهذا الفكر الذى يؤمن بعودة المسيح والحكم الإلهى لمدة ألف عام ، وعدّه الملك چاك الأول ، خطرا (١٦٠٣-١٦٢٥) ، ولكنه مع ذلك أصبح حجر الزاوية للصهيونية المسيحية : عودة اليهود إلى فلسطين (بعد اعتناقهم المسيحية بالنسبة للبعض ، ومثل فينش نفسه ، أو بدون هذا الشرط بالنسبة لآخرين «١٧») ، يجب أن تسبق نهاية العالم (الألفية) والتى تشهد عودة المسيح .

أما بالنسبة للپيوريتانيين، الذين عدّوا أنفسهم شعب الله، أبطال العهد القديم فقد حلوا محل قديسى الكنيسة الكاثوليكية. وأطلقوا أسماء إبراهيم وإسحق ويعقوب على أبنائهم. وطالبوا بأن تصبح التوراة هى أساس القانون الإنجليزى.

هذه الأيديولوچية وهذه الأسطورة ظهرت بوضوح لدى البيوريتانيين الذين هاجروا إلى أمريكا والذين يرون أنفسهم عبرانيى الإنجيل الذين خرجوا إلى المنفى: لقد استطاعوا أن يهربوا من استعباد فرعون (چاك الأول) وكان هروبهم من أرض مصر (إنجلترا) للوصول إلى أرض كنعان الجديدة: أمريكا.

وعندما كانوا يطاردون الهنود للاستيلاء على أراضى أمريكا، كانوا يدعون مماثلة يشوع و«الإبادة المقدسة» للعهد القديم: كتب أحدهم قائلا: «إنه من الواضح أن الله يدعو المستوطنين إلى الحرب. الهنود وقبائلهم المتحدة، يهربون أمام أعدائهم، كما كانت تفعل القبائل القديمة مثل أماليسيت والفلسطينية التى كانت تتحالف مع آخرين ضد إسرائيل».

بالنسبة للپيوريتانيين الأمريكيين، وكذلك الإنجليز، قراءة الإنجيل يجب أن تكون حرفية، ومن خلال اللاهوتية الغريبة على المسيحى، العهد لا يتحقق من خلال يسوع المسيح عن طريق عودة مملكة الله. كل «العهود» فى العهد القديم تتعلق باليهود كجنس، الذين ارتبطوا بيعقوب برباط الدم، وليس بإسرائيل التى أقامها الله، أى أن المجتمع الروحانى الذى جاء من نسل إبراهيم، والذى ارتبط به ليس من خلال استمرارية الدم ولكن من خلال التجمع فى العقيدة.

كان الآباء المؤسسون في الولايات المتحدة، البيوريتانيون، يعدّون أنفسهم ، شعب الله المختار؛ «إسرائيل الله» الجديدة، وهو تعبير تكرر مرارا في التاريخ الأمريكي منذ وصول البيورتانيين الأوائل مع ماى فلاور وجمعية مستوطنة پلايموث (١٦٢٠)، وحتى يومنا هذا.

في عام ١٩١٢، أعلن الرئيس الأمريكي تافت: «يجب أن أظل أحمي شعبنا وممتلكاته في المكسيك، إلى أن تفهم الحكومة المكسيكية أن هناك إلها في إسرائيل وأنه من واجبنا طاعته».

ولكي نوضح إلى أي حد من الهمجية العنصرية يمكن أن يصل المؤرخ، عندما يستخدم الإنجيل استخداما سياسيا، سنذكر فقط بعضا من المشهورين منهم: الأمريكي ويليام فوكسويل أولبرايت في كتابه: من العصر الحجري إلى المسيحية. الوحدانية وتطورها. (الترجمة الفرنسية، بايو، ١٩٥١، ص ٢٠٥). في هذا الكتاب يبرر أولبرايت الإبادة المقدسة لهزيمة كنعان. (جوج المجلد الأول، ٨: «أبناء يهوذا هاجموا القدس واستولوا عليها: وعبروها بحد السيف وأشعلوا النيران في المدينة». ثم كتب يقول: «الله سيحرم الكنعانيين من أملاكهم أمامك..» ..«سأطارد الكنعانيين من أمامك». (الخروج المجلد ٣٣، ٢)

وبعدما ذكر المثل بمطاردة الهنود في بلاده، أضاف قائلا: «نحن ـ الأمريكيين ـ من حقنا ـ ربما أقل من أي دولة حديثة أخرى، ورغم إنسانيتنا المخلصة ـ الحكم على يهود القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لأننا قمنا بإبادة آلاف الهنود في كل مكان في بلادنا الضخمة وجمعنا هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة في معسكرات اعتقال كبيرة».

وأضاف في نفس الصفحة، ٢٠٥ ، هذا التعبير الحقيقي لعقيدته العنصرية : «فيلسوف التاريخ، الذى يعدّ نفسه قاضيا محايدا، يرى أنه من الضرورى اختفاء شعب يكون من أنواع الشعوب الدنيا، ليترك مكانه لشعب آخر يحمل قدرات متفوقة، وذلك لأنه ابتداء من مستوى معين، يصبح الخلط بين الأعراق كارثة». ذلك قاده إلى أن يختتم حديثه عن كنعان بقوله : «لحسن الحظ، منعت التفرقة الامتزاج الكامل بين شعبين ذوى روابط عائلية، وذلك الامتزاج كان بلا شك سيضعف تماما اليهودية».

النتائج السياسية لمثل هذا الفكر واضحة ودائمة، وخاصة فيما يتعلق بأسلوب الأمريكيين البروتستانت تجاه دولة إسرائيل الحالية.

وفى عام ١٩١٨ ، كتب الرئيس ويلسون الذى تربى فى تلك المفاهيم والتقاليد، إلى الحاخام ستيفن وايز (خطاب ٣١ من أغسطس عام ١٩١٨) ليؤكد له موافقته على إعلان بلفور مؤسسا على الأساطير الصهيونية.

وفى عام ١٩٤٨، لم تعد المسألة تشير إلى التعهد بإقامة وطن قومى لليهود، كما كان فى إعلان بلفور، ولكن أصبحت تتعلق بحدود حقيقية لدولة، وكتب فى ذلك الوقت قائلا: «الحدود الخاصة بالأراضى التى وعد بها إبراهيم يجب أن تعود خلال الألفية. والمسيح سيعود إلى الأرض فى مملكة، فى معناها الحرفى واللاهوتى، فيها حكومة مشكلة مثل الحكومة القومية الحالية».

وعندما تحدث چيمى كارتر فى الكنيست الإسرائيلى، فى مارس عام ١٩٧٩ ، وذلك فى أول سابقة من نوعها منذ إعلان قيام الدولة

الإسرائيلية، أعلن قائلا: «إسرائيل والولايات المتحدة، تكونتا بالرواد الأوائل. بلادى أيضا، وطن من المهاجرين واللاجئين، الذين تكونوا من شعوب جاءوا من العديد من الدول. . إننا نتقاسم إرث الإنجيل».

كان كارتر قد ردد العبارة الأخيرة بشكل أكثر تأكيدا عندما قال: «إقامة دولة إسرائيل هى تحقيق للنبوءة الدينية».

لذا، فإن الدور الذى تلعبه الأساطير الصهيونية فى خيال الشعوب، ضخم. ولا يستطيع المرء أن يشرح مدى فاعلية اللوبى الصهيونى على المستوى العالمى، إلا من خلال قوة تنظيمهم والوسائل السياسية والمالية الضخمة التى يملكونها، وخاصة بفضل التأييد بلا شرط وبلا حدود الذى تقدمه الدولة الأمريكية لهم. هذه القوة تؤدى بالتأكيد دورا رئيسيا، ولكن، قبول تلك الأسطورة البذيئة، بحسن نية فى أغلب الأحيان، وقبول عواقبها السياسية الدموية، سيكون غير مفهوم إن لم نذكر - كما فعلنا لتونا - التلاعب الأيديولوچى خلال كل تلك القرون. فمن ذلك التلاعب قيام الكنيسة المسيحية بتكوين الصهيونية المسيحية التى كونت ساحة من السهل استغلالها من خلال الدعاية الصهيونية السياسية ودولة إسرائيل.

وقبل التطرق إلى مشكلة الصهيونية السياسية، التى تنبثق من القومية والاستعمار ومناهضة السامية الأوروبية فى القرن التاسع عشر، والتى لا تأتى جذورها الحقيقية من النصوص الدينية، فقد وجب تأكيد ما يلى:

ـ إن ذلك التصور الغامض لفلسطين، فى الصهيونية المسيحية، ينبثق من ديانة مسيحية بدائية (والتى سبقت كل نقد لتفسير الإنجيل الحديث) وفاسدة (من خلال جعل العهد القديم نصا تاريخيا ونموذجيا، ومن خلال نقل المركز نفسه للعلوم المسيحية بوضع العهد القديم على رأس القائمة بدلا من الرسالة الأسقفية ليسوع).

ـ لقد تم استغلالها سياسيا من البداية (أى منذ لوثر) سواء بهدف مناهضة السامية (التخلص من اليهود عن طريق إرسالهم إلى فلسطين وكأنها جيتو عالمى)، أو لأهداف إمبريالية، (السيطرة الاستعمارية، عن طريق اليهود الذين تكوّنوا فى الغرب، على الشرق الأوسط والطرق المؤدية إلى آسيا)، أو لأهداف صهيونية سياسية (مساندة الإمبريالية الروسية والألمانية والفرنسية والإنجليزية وأخيرا الأمريكية، كلٌ فى نفس الوقت)، وذلك من أجل مساندة مشروعهم، واستغلال مناهضة الصهيونية من أجل إقناع «الشتات» برفض الاستيعاب والتوجه لإقامة دولة قوية فى فلسطين.

كانت الدعوة لعودة اليهود إلى فلسطين، على مدى قرون، من لوثر إلى بلفور، وسيلة لإبعادهم عن الدولة التى يعيشون فيها حتى ذلك الوقت.

كان لموقف مارتن لوثر، هذا الذى كانت حركته هى أصل الصهيونية المسيحية بعد مقاطعتها للتقاليد الكاثوليكية، وضع ذو مغزى. ففى الوقت الذى أعطى أهمية أولوية لملحمة العبرانيين، كما فهمها من قراءة حرفية، وبلا دراسة أو نقد تاريخى، للعهد القديم،

أعرب عن فكره الخفى المناهض للسامية بكتاباته، إذ بعدما كتب فى البداية يقول إن «المسيح ولد يهوديا» (١٥٢٣) مما أثار حماسة اليهود كورثة للعهد، أشارت أعماله التالية عن اتجاه أصبح ثابتا منذ ذلك الوقت: العلاقة بين الصهيونية («العودة» إلى فلسطين) ومناهضة السامية (طرد اليهود من بلادهم) . فكتب فى عام ١٥٤٤ يقول: «مَن ذلك الذى يمنع اليهود من العودة إلى أرض جوديا؟ لا أحد. إننا سنوفر لهم كل ما يحتاجون إليه فى سفرهم، وذلك ببساطة لكى نتخلص منهم. فهم بالنسبة لنا، حمل ثقيل، هم كارثة وجودنا..».

نفس الفكر المبيت للوثر، والذى عُدّ أصل الصهيونية المسيحية، كان يكمن عند بلفور، هذا الذى أعطى الصهيونية السياسية انتصارها الأول: آرثر بلفور، دافع فى عام ١٩٠٥ عندما كان رئيسا لوزراء إنجلترا، عن قانون الغرباء من أجل الحد من الهجرة اليهودية إلى إنجلترا. واتهمه مؤتمر الصهيونية السابع فى ذلك الوقت «بمناهضة السامية الموجهة ضد كل الشعب اليهودى». هذا الفكر المناهض للسامية الراسخ فى نفسه، توافق لديه، وطوال حياته، قبل وبعد عام ١٩٠٥ مع الفكرة الصهيونية لإعطاء أرض لليهود (من أجل إبعادهم عن إنجلترا). وكان بلفور قد اقترح عليهم منذ عام ١٩٠٣ أن يعطيهم أوغندا، وفى عام ١٩١٧، وبناء على أهدافه لشن حرب ضد ألمانيا، كتب بلفور إلى لورد روتشيلد، إعلانه الذى يعبر فيه عن تفضيله قيام الوطن القومى اليهودى فى فلسطين.

إن التاريخ الحالى لفلسطين وتبنى العالم للصهيونية السياسية التى قادت الدول الغربية وفى المقدمة، زعيمتهم: الولايات المتحدة، إلى

مساندتهم بلا شروط وبلا حدود للغزو الصهيونى السياسى فى فلسطين، وللابتزاز، وللسلب والنهب، وللمذابح التى استخدمتها الدولة الصهيونية الإسرائيلية لممارسة هيمنتها الاستعمارية على البلاد، ولعدوانها على الشرق الأوسط، ولاحتقارها للقوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة، وقبول تلك السياسة من جانب الدول الغربية ـ وهو قبول يتضمن اتفاقا ـ كل ذلك لن يكون مفهوما، إن لم نَعُد إلى الأصول التاريخية للأسطورة الصهيونية التى شكلت منذ أربعة قرون، عقلية الشعوب الغربية.

إن تلك القراءة للإنجيل تعدّ مقدسة للمسيحيين. فهو يتضمن، بالنسبة لليهود، العودة إلى مفهوم قبائلى لعقيدتهم، حيث تستبدل برب إسرائيل دولة إسرائيل. وبالنسبة للمؤرخين والتفسيرات، فإنها تأتى من الأسطورة. وبالنسبة للجميع، فإن تلك الأسطورة تخدم عملية تغطية لسياسة قومية واستعمارية، للتفرقة العنصرية والتوسع بلا نهاية.

اليوم، هذا المجتمع الفريد الذى كونته الطبقة الحاكمة الأمريكية، واللوبى الصهيونى الذى يمثله أيپاك AIPAC، وأسياد الدولة الإسرائيلية، تكون أكثر من أى وقت مضى حول وحدة الهدف: الصراع ضد الإسلام وآسيا اللذين يعدّان العقبة الكبرى أمام الهيمنة العالمية الأمريكية ـ الصهيونية.

هناك تواصل كامل بين الأهداف الأولى لمؤسس الصهيونية تيودور هرتزل: «لقد أنشأنا فى فلسطين حصنا حديثا للحضارة الغربية ضد

همجية الشرق»، وبين الفكرة الأساسية لهانتنجتون، مفكر وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون): «الحرب العالمية القادمة ستكون بين الحضارة اليهودية ـ المسيحية والتحالف الإسلامى ـ الكونفوشيوسى».

ومن ذلك المنظور، تصبح إسرائيل عند مفترق الطريق بين عالمين، ساحة المعركة حيث تسطيع، من خلال سياستها الاستعمارية الغازية، أن تكون هى مفجر تلك الحرب الثالثة، والتى ستكون هذه المرة عالمية بحق. تتمنى الولايات المتحدة أن تنتصر فى تلك الحرب، وتفرض هيمنتها العالمية على أطلال عشرين شعبا.

هذا الكتاب: المستقبل: نموذج عمل كتب لكى ينبه إلى هذا الخطر ويقترح الوسائل لتفادى الكارثة.

وفى الحقيقة، فإن المرء لن يستطيع أن يفهم السياسة الأمريكية الحالية والهجوم الإعلامى العالمى الذى تعمل على فرضه على الرأى العام، بدون أن يدرك الجذور التاريخية التى يستند إليها.

ولقد تم تلخيص هذه الأفكار فى مقال نشرته الصحفية: بار يوسف، فى جريدة معاريف بتاريخ ٢ من سبتمبر عام ١٩٩٤، تحت عنوان: تعزيز غير مسبوق للقوة اليهودية. قالت فيه:

«منذ عدة أسابيع، أعلن أداث يسرائيل، حاخام المعبد اليهودى الكبير فى واشنطن، فى خطبته التى كرسها عن المركز الثقافى السياسى اليهودى، وهو المركز الذى على وشك أن يفتتح فى الولايات المتحدة، قائلا: لأول مرة فى تاريخ الولايات المتحدة، لا

نشعر أننا نعيش هنا فى الشتات . . فلم يعد فى الولايات المتحدة حكومة من غير اليهود (الجويم) ولكنها إدارة يشارك اليهود فى عملية اتخاذ القرارات فيها على جميع المستويات. وإنه لمن المفضل أن نعيد النظر فى استخدام تعبير حكومة جويم فى القانون الدينى اليهودى حيث إنه لم يعد له مكان هنا . . » .

لقد أسفرت «التغييرات التى شهدتها إدارة كلينتون ، عن دعم القوة اليهودية بشدة . كان هذا الدعم قد بدأ يظهر ليصبح محسوسا منذ فترة حكم الرئيس ريجان ووزير خارجيته شولتز . لقد شهدنا وزير خارجية يهوديا ، هو هنرى كيسينجر ، يتمتع بثقة نيكسون ، كما كان هناك وزراء يهود فى إدارة كارتر . ولكن ذلك كان الاستثناء الذى يؤكد القاعدة . القليل من اليهود «المغامرين» الذين تم استدعاؤهم للمشاركة فى السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط» . (. .)

فى السادسة صباح كل يوم ، تتوجه عدة سيارات رسمية ، من مركز وكالة المخابرات الأمريكية إلى البيت الأبيض ، تقل كبار رجال المخابرات المسئولين عن تقديم التقارير للرئيس والقيادة العامة تلك التى أعدها أفضل الخبراء الأمريكيين خلال الليلة السابقة ، والتى أعدت على أساس المعلومات السرية التى جاءتهم من كل المراكز التابعة للسى آى إيه فى العالم ، وتتناول أكثر الجوانب حساسية لتطورات الوضع العالمى .

«وإذا تواجد كلينتون فى واشنطن فى ذلك الوقت ، فهو الذى يدرس وعلى وجه السرعة مع المسئولين الآخرين التقرير الموجه لهم : مثل نائب

الرئيس آل جور، ومستشار مجلس الأمن القومى أنتونى ليك، ورئيس القيادة العامة فى البيت الأبيض ليون بيرث ـ الأخيران يهوديان «متزمتان» لهما مكانة غاية فى الأهمية فى سياسة الولايات المتحدة . .

«من بين الأعضاء الاثنى عشر فى مجلس الأمن القومى، سبعة يهود، أعطاهم كلينتون مسئوليات خاصة وحساسة بين قطاعى الأمن والإدارات الخارجية . بيرجيه، نائب رئيس مجلس الأمن القومى، مارتن إنديك، مسئول عن ملفات الشرق الأوسط وجنوبى آسيا، دان شيفتر، مسئول عن ملفات أوروبا الغربية، دان ستاينبرج، عن ملفات إفريقيا، ريتشارد فينبرت، عن ملفات أمريكا اللاتينية، وستانلى روس، ملفات آسيا على وجه العموم . .»

الوضع فى قسم الخدمات المتعلق بالرئاسة ليس مختلفا، فمع المدعى العام الجديد آبنر ميكفى، والمسئول عن الأچندة الرئاسية ريكى سايدمان، والرئيس المناوب للقيادة العامة فيل لايدا، والمستشار الاقتصادى روبرت روبن، ومدير الإعلام ديڤيد هايزر وآخرين . . عضوان فى المكتب الرئاسى يهود: روبرت ريش وزير العمل وميكى كانتور وزير التجارة الخارجية . كما يجب إضافة قائمة طويلة من المسئولين والعديد من السكرتاريين الذين يعملون تحت إدارة دنيس روس، رئيس فريق «من أجل السلام فى الشرق الأوسط» .

هذا التأثير الضخم لليهود فى واشنطن لا يقتصر على المسئولين الحكوميين . فهو ضخم أيضا فى مجال الإعلام، حيث عدد كبير من

المسئولين عن برامج التليفزيون، وعدد كبير من رؤساء التحرير، والمراسلين والمعلقين على الأحداث، يهود، يقيمون صلاتهم فى المعابد اليهودية، حيث يدعوهم رجال الدين إلى مساندة إسرائيل مساندة كاملة.

إنه لمن المدهش أن القيادات الرئيسية للدولة الأمريكية (الحرب والسياسة الخارجية والمخابرات) فى أيدى صهاينة: كوهين وزير الدفاع، وأولبرايت وزيرة الخارجية، التى تتحدث نفس لغة نيتانياهو وثلاثة من أكبر المسئولين فى وكالة المخابرات المركزية، صهاينة على أعلى مستوى.

كما يجب ألا ننسى أن ٦٠٪ من الميزانية الخاصة للحملة الانتخابية لبيل كلينتون جاءت من المنظمات اليهودية الأمريكية. حملة تكلفت ٣ مليارات من الدولارات، أى ثلاثة أضعاف ميزانية عام ١٩٩٢.

فى عام ١٩٧٦ قررت المحكمة العليا أن وضع حدود مالية (على تكاليف الحملة الانتخابية) يعد انتهاكا لحرية التعبير التى يضمنها التعديل الأول للدستور.

لوبى أيباك AIPAC (وهو لوبى إسرائيلى) يأتى فى المقدمة قبل لوبى رجال البنوك والنقابات، وصناع الأسلحة وتجار المخدرات. لقد أصبح «لوبى» قويا. وعندما لمح كلينتون أنه يجب كبح جماح السياسة التى تدعو إلى الاستيطان التى ينتهجها نيتانياهو، وجه له ٨٣ سناتور من بين مائة، تحذيرا لكى يتنازل عن كل أنواع الضغط.

إننا بصدد لوبى صهيونى، وليس يهوديا، لأن الأيباك (لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية) تتحكم فى ٥٥ ألف عضو فقط من بين جالية يهودية أمريكية تضم خمسة ملايين شخص. ولكن اللوبى يتحكم فى كل خيوط السلطة، ويقوده أقوى رجال الأعمال فى الولايات المتحدة. (ثقل اللوبى الموالى لإسرائيل، لوموند، بتاريخ ٥ من مايو عام ١٩٩٨).

الفصل الثالث

طريق آخر كان ممكنا

(أ) الرواد السابقون: من جواكيم دى فلور إلى الكاردينال دى كيو

(ب) الفرص الضائعة: من توماس مور إلى مونتين

(أ) الرواد السابقون:
من جواكيم دى فلور إلى الكاردينال دى كيو

جواكيم دى فلور (١١٣٥-١٢٠٢) ، راهب من كالابر فى القرن الثانى عشر ، يتناول المشكلة من جذورها : تفسير المسيحية التى سادت أوروبا ، من القديس بولس إلى قسطنطين ، الصراعات بين الكهنوت والإمبراطورية من أجل فرض اليد العليا فى السلطة (البابا أو الإمبراطور) وحتى الحملات الصليبية حيث عرف انتصارات غير حقيقية (قابل ريتشارد قلب الأسد) وأعنف الهزائم (كان يبلغ من العمر ٥٢ عاما عندما استعاد صلاح الدين القدس) .

تعلم فى صقلية فى قصر روچيه الثانى ، حيث امتد تأثير الثقافة الإسلامية حتى بعد نهاية الهيمنة العربية على الجزيرة (١٠٧١) وحيث تعددت الغزوات البيزنطية بعد الانقسام الذى وقع فى عام ١٠٥٤ وفصل الأورثوذوكسية الشرقية عن روما .

فى ذلك العصر الذهبى لصقلية ، حين ازدهرت روحانيات الشرق ، قام جواكيم دى فلور بأول عمل يستحق عليه الثناء ، وهو أنه ندد بالتحالف الألفى بين الكنيسة والسلطة .

كتب هنرى موتو Henry Mottu، كاتب قصة حياة جواكيم دى فلور يقول: «الاستفسار الجواكيمى من شأنه أن يقلب المنظور البولينى(القديس بولس)». وفى واقع الأمر لقد شكك جواكيم دى فلور جذريا فيما يلى:

١ـ الاستمرارية بين العهد القديم والرسالة الحديثة للمسيح: «المسيح لم يأت لكى يغلق تاريخ الإنقاذ ولكن ليفتحه حتى نهايته». (ص ٣٢٦)

٢ـ الادعاء بأن يسوع هو المسيح الذى ينتظره اليهود، وبالتالى، جعل من هذا المسيح مؤسسا لكنيسة «تستمر حتى نهاية الزمن» كما قال القديس توماس.

جواكيم دى فلور لم يقبل تلك المسيحية التى أعطاها بولس صبغة يهودية. حتى إنه كتب يقول من أجل تأكيد الانقسام، كتاب بعنوان "Adversus Judeos" فى مواجهة اليهود).

قام فيه بالتأكيد على مراحل الإنقاذ بعكس ما كان يقال: «إذا كانت كلمات العهد القديم قد وجهت إلى الشعب اليهودى، فإن كلمات العهد الجديد وجهت إلى الشعب الرومانى، بينما الذكاء الروحانى الذى جاء منهما معا، وجه إلى الروحانيين». (كونكورديا المجلد الثانى، ١، ٧، ٩ب)

وهكذا انتشر الثالوث المقدس فى التاريخ:

ـ عصر الأب: هو عصر القانون.

- عصر الابن: هو عصر الغفران.

- عصر الروح القدس: سيكون عصر الحرية.

هذا المفهوم للثالوث المقدس أدين فى عام ١٢١٥ فى مجمع لاتران، لأن التحالف الثالث كوّن صيغة ثانية للكنيسة الرومانية ولسلطة رجال الدين فيها. هذه الصيغة اختفت فى عصر التبشير الدائم (أبو كاليبس المجلد الرابع عشر، ٦)، حين أصبحت السلطات السابقة قديمة ولا تصلح، بعد اعتبار الله؛ كل شيء فى الجميع: أما إذا تحول كتاب التبشير إلى قانون، حتى ولو جديد، فإن المسيحية كلها ستنطفئ فى ظل اليهودية الجديدة. (تراكتاتوس ١٩٧ . ٢ ـ٣) .

وفى مقابل البولينية القسطنطينية، يمثل جواكيم دى فلور القطب المدمر لكتاب التبشير.

تحت هذا اللقب فإنه يعدّ رائدا لانفتاح مزدوج للمسيحية التقليدية.

(١) الانفتاح الأول لم يكن فقط الرفض الكبير للاهوتية توماس الرومانية التى تدعو إلى الهيمنة والتى عبر عنها كتاب الإصلاح للوثر، ولكن أيضا الانفتاح نحو ثورة توماس مونزير Munzer، تلك التى تقدم رؤية لعالم بلا كنيسة وبلا ملكية وبلا دولة. إنه مشروع يحمل تنبؤا أوليا إلى حد أن ماركس وإنجلز سيعدونه أكثر البرامج الشيوعية تطرفا حتى منتصف القرن التاسع عشر، أى حتى قاما بنشر المانيفستو الشيوعى (إنجلز: حرب الفلاحين. الخاتمة)

(٢) هدف عالمية العقيدة. سافر جواكيم دى فلور إلى القسطنطينية وحلم بإقامة وحدة العقيدة بعد الانقسام الذى وقع بين كنائس الشرق.

كان يستطيع أن يجد لدى رجال الدين فى الشرق مخرجا أوليا لرؤيته: «فى تاريخ الكون هناك طفرتان كبيرتان، وهما ما نطلق عليهما العهدين، الأول قاد البشرية من الوثنية إلى الإيمان، والآخر من الإيمان إلى التبشير، وهناك زلزال ثالث متوقع..» (سان جريجوار دى نيس. خطاب لاهوتى المجلد الخامس، (١٥) وهو ما قد يستند على كتاب التبشير لسان چان، والذى يذكره جواكيم دى فلور كثيرا. فى الكتاب يحذر المسيح حواريه فيقول:

«مازال عندى أمور كثيرة أقولها لكم ولكنكم تعجزون عن احتمالها، ولكن عندما يأتيكم روح الحق يرشدكم إلى الحق كله لأنه لا يقول شيئًا من عنده بل يخبركم بما يسمعه ويطلعكم على ما سوف يحدث». (إنجيل يوحنا، الأصحاح ١٦ : ١٢ ـ ١٣).

زار جواكيم دى فلور القدس، ولأنه كان متشربا بالثقافة العربية الإسلامية بسبب دراسته الأولى فى صقلية، استطاع أن يفهم الفكرة الأساسية لتلك الفلسفة: لم يخلق الله العالم مرة واحدة وإلى الأبد، ومنها شكل التاريخ من خلال قبول ذات الحق الإلهى، ولكن بالعكس خلق العالم من خلال الفعل نابعا من كرامة الإنسان، وأداء مهمته فى عملية الخلق التى يقوم بها الله ﴿...كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (سورة الرحمن الآية: ٢٩).

إن حركة الخلق المستمرة هذه، وفعالية الإنسان الذى يسكن فيه روح من الله سيكون هو العامل المشترك من رامون لال إلى الكاردينال نيقولاس دى كيو، من عقيدة الأمل إلى عقيدة الحرية، وكل محاولات توحيد حقيقى للكنائس، أى توحيد كامل، لكل العقائد لكل العائلات فى الكون.

لقد وضع دانتى جواكيم دى فلور فى السماء الرابعة من كتابه الجنة وحيّا فيه روحه التنبؤية.

هذا الأمل الكبير فى العالمية الحقيقية ووحدة العقيدة، أعيد إحياؤه بعد نصف قرن من وفاة جواكيم دى فلور، فى جزيرة أخرى بالبحر المتوسط، هى جزيرة مايوركا حيث تأثير الثقافة العربية الإسلامية استمر حيا رغم استرجاعها.

رامون لال (1232-1316) Ramon lull كان عليه هو الآخر أن يحارب التطرف والقمع: ولد فى نفس العام حينما آلت مسئولية محاكم التفتيش إلى الدومينيكان. وكان قد بلغ ١٢ عاما حينما أحرق آخر الكاثاريين فى محرقة مونتسيجور. وعندما بلغ ٤٢ عاما نشر القديس توماس داكين فى عام ١٢٧٤ كتابه حصيلة لاهوتية. وعندما بلغ ٥٩ عاما اضطرت الحملات الصليبية الأخيرة إلى العودة إلى أوروپا فى سان چان داكر، فى عام ١٢٩٤، بعد هزيمة الحملة الثامنة.

توفى لال فى عام ١٣١٦، ولكن فى عام ١٣٧٦، أدان البابا جريجوار الحادى عشر فكره واتهمه بالكفر، ولم يعد تأهيله إلا فى عام ١٤١٩ فى عصر البابا مارتن الخامس.

كانت أعماله تسيطر عليها روح تبشيرية : فلقد تعهد منذ اعتناقه الدين ، ألا «يستريح أو يشعر بالعزاء طالما أن العالم كله لا يؤمن بالله» (Libre de contemplacio كتاب التأمل ، الفصل ٣٥٨، ٣٠). وذلك ليس عن طريق الإجبار والعنف بل على العكس ، بأن يكون مفوضا عن الكفار .

وفي كتابه Ars Magna قدم رامون لال نموذجا للتفكير العالمي ، استخدمه كوسيلة إقناع أكبر ، هذا النموذج ليس له علاقة بمنطق أرسطو والقديس توماس ، ولكنه يتضمن مشروعا أوليا للتوافق الذي أقامه لايبنز أثناء سعيه لتحقيق حلمه بأن يكون هناك لغة عالمية .

وكما اهتم لايبنز باللغة الصينية وسداسية يي ـ كينج ، من أجل الوصول إلى هذا الهدف ، ترجم رامون لال في عام ١٢٧٦ منطق الفيلسوف المسلم الغزالي ، ونشر كتاب **إيڤاست** وبلاكيرن مستلهما أفكاره من غموض الصوفية . والكتاب عبارة عن قصة وفي الوقت نفسه تصوير للمدينة الفاضلة ، يشرح فيها مسيرة الإنسان الروحية كما يعطي صورة للمجتمع المثالي الذي يضم الإنسانية كلها ويضمن السلام للجميع .

من هنا سيستطيع الإنسان أن يكرس نفسه للتأمل واكتشاف الله في الحب . إنه كتاب **الصديق والمحب** .

ومن أجل إقناع المسلمين ، قام رامون لال في عام ١٣٠٧ ، في بوجي Bougie ، باستخدام لغة ووسائل محاوريه ، كما أشار عليه المستعربون الإسپان الكبار أمثال چوليان ريبيرا وآسين بالاثيوس .

ولقد استخدم لغتهم العربية أيضا عام ١٢٧٠ لكتابة كتابه السيد والحكماء الثلاثة. الحكماء الثلاثة هم حاخام يهودى وقس مسيحى وشيخ مسلم. أما السيد فهو رجل علمانى يحاول ثلاثتهم إقناعه بعقيدة كل منهم.

فى البداية أصيب العلمانى بالإحباط بسبب الاختلافات بينهم، ولكن فى النهاية انضم إلى عقيدة مشتركة عندما اعترف أحدهم قائلا: «إن الناس جميعا متمسكون بالعقيدة التى اختارها لهم آباؤهم وأساتذتهم إلى حد أنه من المستحيل تخليصهم منها». ولكن على الجانب الآخر، هناك عقيدة أساسية وأولية، نشأت عبر اختلاف الثقافات، تلك العقيدة هى التى اختارها السيد، ولكن الحكماء الثلاثة لم يستطيعوا أن يميزوا أيا من العقائد الثلاث كانت. وفى النهاية قال أحدهم: «يجب علينا أن نستخلص حكمة من المغامرة التى عشناها. سنظل نتقابل إلى أن نعتنق جميعا عقيدة واحدة». وتعاهدوا جميعا على أن ينقلوا تلك الحقيقة إلى العالم «عندما يصلون إلى العقيدة الواحدة».

وفى مبدإ ورؤية رامون لال، هناك الحب الذى يجعل الإنسان الفانى يدرك مدى قصوره بالمقارنة بالخلود الذى يسعى إليه. إنه محرك حياته: الذات هى أن يفعل من أجل تجاوز فنائه، أى أن يعمل فى تجانس مع العالم واكتشاف أن الله داخلنا فى أعماقنا الخاصة ويدعونا إلى مواصلة عمله فى خلق تلك الوحدة من الذات ومن العالم ومن الله.

***

وكان الحلم الكبير الأخير للعالمية الذى قام على أساس الإثراء المتبادل بين الثقافات والأديان، ومن أجل وحدة متناغمة للعالم، ولكن ليس من أجل وحدة إمپريالية تهدف إلى السيطرة، وفى انفصال عن الفكر الرومانى ثم الغربى فى التركيز على الذات، هذا الحلم كان حلم الكاردينال نيقولاس دى كيو (١٤٠١ ــ ١٤٦٤) الذى نشره فى كتابه: سلام العقيدة، عام ١٤٥٣، نفس العام الذى استولى فيه العثمانيون على القسطنطينية، عاصمة مملكة ذات تقاليد رومانية فى إطار إغريقى.

كان للانتصار العثمانى ردود فعل واسعة فى كل أوروپا، لأنه بدا وكأنه انتصار الإسلام على المسيحية.

ولكن بدلا من أن يدعو إلى شن حملات صليبية جديدة، أعطى الكاردينال نيقولاس دى كيو إجاباته عن كل حوار حقيقى على أساس مبدأين أساسيين ذكرهما فى كتاب سلام العقيدة، فى الفصل الخامس من الكتاب:

١ـ «لن يستطيع أى مخلوق أن يفهم فكرة وحدة الله».

٢ـ «ليس هناك إلا دين واحد بين كل تلك الممارسات الدينية المختلفة».

ولقد حاول هكذا أن يفسر معنى عقيدة أساسية وعالمية، أخفيت وحدتها وراء قناع من الاختلافات الثقافية التى تعبر عن نفسها من خلالها: «إنها ليست عقيدة مختلفة، ولكنها نفس العقيدة الواحدة التى ستجدها غير واضحة عند معظم شعوب العالم». (الفصل الرابع)

فكرته هذه لم تكن فقط محاولة لاستبعاد الحملات الصليبية، ولكنها كانت تغييرا فى دور المهمة: فبدلا من ممارسة الاستعمار الثقافى على الآخر، فإن المبشرين المسيحيين يجب أولا أن يدركوا أن المسيح حى، حاضر ويعمل فى داخل الاختلافات الكبيرة للعقائد والثقافات.

من تلك الفكرة كان مشروع المجمع العالمى لكل الأديان فى العالم من أجل بناء سلام دائم بين الشعوب من خلال إدراك عقيدة مشتركة تحترم الاختلافات بين مريديها، لأن «قبل كل تعددية نجد الوحدة». (الفصل الرابع)

وهناك أولا الوحدة العميقة التى بين الإنسان والله، تلك الوحدة التى تصورتها كنيسة الشرق التى عرفها نيقولاس دى كيو، ليس فقط من خلال قراءاته لكتاب «القساوسة اليونانيون» ولكن من خلال التجربة التى عاشها للعقيدة الأورثوذوكسية أثناء رحلته إلى القسطنطينية عام ١٤٣٧.

كان أول من بدأ الحديث فى المجمع، بعد اليونانى، رجل غير مسيحى: كان هنديا يدعو إلى أن البشر «ليسوا هم الله مطلقا ولكنهم الله من خلال المشاركة». (الفصل السابع)

وأكد الكالدونى: «إننا نرى فى جوهر الحب كيف يقوم المحب بتوحيد الحبيب مع المستحب». (الفصل الثامن)

وفى خطابه إلى چان دى سيجوڤى Jean de Segovie، كبير أساقفة سيزارى، بتاريخ ٢٨ من ديسمبر عام ١٤٥٣ هنأه نيقولاس دى

كيو لأنه قام «بدراسة نقدية للقرآن» : وقال له «يجب أن نتحاور معهم ولا نحاربهم» ، وكتب هو نفسه فى عام ١٤٦١ كتاب Cribratio Alchorani دراسة نقدية للقرآن حيث بحث فى الصيغ التى يوهم ظاهرها التعارض ما يمكن أن يكون متوافقا مع عقيدته نفسها .

لم يكن هناك فى ذلك البحث فى العقيدة الأساسية والأولى عبر الاختلافات بين الأديان ، أى مفهوم انتقائى : فيقوم الكاردينال نيقولاس دى كيو بتناول هذا الحوار من منطلق التأمل العميق ، (فى كتابه حول الجهل العالم ، ١٤٤٠) حول المعرفة التى تعارض الفلسفة الإغريقية للذات ومنطق أرسطو ، لأنها تقوم على تصور للواحد الذى لا يستثنى التعددية ولا التناقض ، وعلى إيمان حاد بالعلاقات بين الفانى والخالد ، بين الإنسان والله ، وهو التصور الذى قال إنه تلقى مظاهره الفلسفية خلال رحلته فى الشرق فى عامى ١٤٣٧ و١٤٣٨ .

وفى مواجهة مع فكر أرسطو ومنطق مدرسته ، الذى كان سائدا فى هذا العهد ، قام بصياغة مبدإ الصدفة فى التضادات .

بالنسبة له ، الفكر ليس انعكاسا للذات ، بل هو الفعل : فعل الإنسان الفانى الذى يدفع نفسه إلى التفكير فى كامل علاقاته بالآخرين ، وإدراك أنه ليس موجودا ، خارج تلك العلاقات مع الآخرين ومع الله .

هذا التأمل الروحانى متأصل فى تفكير حسابى حول فكرة الخلود : المثلث ، على سبيل المثال إذا كان أحد أضلاعه لانهائيا ، فسيكون

متطابقا مع الخط المستقيم، وأيضا فى دائرة قطرها لا نهائى، فكل قطعة من محيط الدائرة ينثنى داخل شكل لانهائى، ويصبح خطا مستقيما (الفصل الأول، و١٣). ونفس الشىء مع شكل مضلع حيث يمكن تقسيم أضلاعه إلى مالا نهاية فيصبح دائرة.

وهكذا فإن كل شىء، ارتبط فى تفكيرنا بالخلود، بالله الذى «يعمل كل ما يمكن أن يكون موجودا»، يمثل كيانا واحدا فى متغيراته وتعدده.

«الأشياء الظاهرة هى صورة للأشياء غير الظاهرة» (١، ١١) والجهل العالم، ليس إلا الإيمان، تصور كل شىء داخل الله، أى فى إجمالى علاقاته بكل شىء، وإدراك علاقته باللانهائى. إنه بهذه الوسيلة، وبالانضمام إلى الأستاذ إيكهارت، يرى دى كيو أن الوقت: هناك إذا أمكننا أن نتأمل التاريخ من وجهة نظر اللانهائى: إذا رأينا الأشياء داخل الله (الذى هو خارج حدود الزمن) يصبح الماضى والمستقبل قطبى الحاضر. وبالمثل، كما قال الأستاذ إيكهارت: «من وجهة نظر الله، تصبح لحظة خلق الكون، واللحظة التى أتحدث فيها معكم، ويوم القيامة كلها هى نفس اللحظة الواحدة». (Sermon 9)

فيما يتعلق باللانهائى، فإن اللحظة تتطابق مع الخلود. «لأن اللانهائى يجعلنا نتجاوز تماما كل معارضة» (الفصل ١٦) وكما تصبح ثنيات الدائرة فى اللانهائى خطا مستقيما، مثل المثلث. نفس الشىء يحدث لكل شكل وكل خط: «اللانهائى فى الفعل مثل النهائى فى القوة»، (المجلد ١، الفصل ١٣)

«اللانهائى يجعلنا نتجاوز كل معارضة» (الفصل ١٦) . «كل شىء موجود فى الله، والله موجود فى كل شىء» (المجلد الثانى، الفصل ٣) . كل شىء موجود داخل كل الأشياء الأخرى ولا يتواجد إلا من خلالها. تلك هى «حركة اللقاء بين المحبين والتى تجذب كل الأشياء نحو الوحدة من أجل تشكيل، من خلالهم كلهم، عالم واحد» (المجلد الثانى، الفصل ١٠)

نيقولاس دى كيو، قال تلك الصيغة التى تصورنا خطأ أنها لباسكال: «منظومة العالم لها مركزها فى كل مكان ومحيطها فى لامكان، لأن الله هو المحيط والمركز، هو الذى يوجد فى كل مكان، وفى لامكان» . (المجلد الثانى، ١٢)

ولكن بالنسبة لنا، فى كياننا الفانى، وحدة التعدد تلك لا يمكن التوصل إليها إلا من خلال الصورة: كل تصوير أو تفسير للّه يقلصه إلى حجمنا نحن الكائنات الفانية. كل علم لاهوتى هو بالضرورة سلبى: كل ما أستطيع أن أقوله عن الله هو أنه بالضرورة معبود. ولا أستطيع أن أقول ما ليس هو: لا يوجد أى شىء فان بالنسبة للخالد.

الجهل العالم، مقابل الجهل المتكبر، كما تُصورها فلسفة الذات لأرسطو وكما تصورها فلسفات الذات لديكارت وأوجوست كومت.

هذه الفلسفة قامت بتأسيس سلام العقيدة، من خلال فهمها لكل ما هو معبود: «الأفراد أعطوا الله العديد من الأسماء، من وجهة نظر الخلق الفانى. . كل تلك الأسماء تعتبر من الكمال الخاص. . فهم يرونه حيث يرون أعماله المقدسة» . (المجلد الأول. الفصل ٢٥)

تلك العالمية سيدمرها، بعد قرن كامل، الانفصال الثانى للغرب: فبعد فلسفة الذات التى قدمها أفلاطون وأرسطو، تأتى تلك التى تفسر فى المنطق التكنيكى لعصر النهضة. وهكذا قام الغرب بتصور علم لا يهدف إلا إلى الزيادة الكمية للوسائل، ومتناسيا البحث عن الأهداف.

(ب) الفرص الضائعة:

من توماس مور إلى مونتين

منذ هذا العصر التاريخي الذى بدأ فى عام ١٤٩٢ بغزو أمريكا، كان هناك رجال أبصروا معنى الهمجية الجديدة لذلك الغرب الذى عدّ نفسه الحضارة الوحيدة الممكنة، والوحيدة التى تمثل الحداثة، وأثبتوا أنه فى تلك اللحظة التى حدث فيها انكسار التاريخ، ضل هذا الغرب طريقه.

كان هناك نفوس شفافة مثل القس بارتولوميو دى لاس كاساس Bartolome de las Casas، ابن أحد رفقاء كريستوفر كولومبوس، وأول قسيس فى القارة الأمريكية، وأول أسقف فى تشاباس، كتب يقول فى كتابه حول تدمير الهند إن: «الهمجية جاءت من أوروبا».

أما أهم شهود تلك الأحداث فهو توماس مور Thomas More (1478-1535) الذى كتب أول كتاب عن المدينة الفاضلة فى أوروبا. مور لم يحدد رؤيته للمستقبل من الأحلام الذاتية ولا من الروايات الخيالية.

بل بالعكس، كان أول كتاب له عن المدينة الفاضلة، عبارة عن تحليل عميق للتحول من مجتمع إقطاعى وزراعى إلى الرأسمالية التجارية التى بدأتها مصانع الصوف الذى كان يجرى تحت بصره فى إنجلترا.

وبصفته محامى شركات الخردوات، عرف كل آليات تجارة الصوف مع الفلامنك الذين استقبلوه فى مدينة آنفر، كسفير من أجل فض المنازعات مع النساجين. ثم بعد ذلك قام بتهدئة الصراعات بين التجار الإنجليز والفرنسيين. وبصفته عضوا فى البرلمان، تخصص فى تنظيم عملية الإنفاق فى الدولة.

عند تولى هنرى الثامن المُلك فى إنجلترا، كتب هنرى مور يقول إنه تجرأ وتمنى أن يصبح الملك - أى هنرى الثامن - «أبًا لكل الشعب وليس سيدا لعبيد». فى عام ١٥٢٩، تولى هنرى مور أكبر منصب قضائى فى البلاد: منصب كبير قضاة المملكة. ولكنه رفض بتصميم إقرار طلاق هنرى الثامن من كاثرين الإسپانية، كما قام بصفته كاثوليكيا مؤمنا، برفض إقرار قانون السمو لعام ١٥٣٣، الذى يجعل من الملك الرئيس الأكبر للكنيسة الإنجليكية. ولقد أدين توماس مور لمعارضته الحاسمة فحكم عليه بالإعدام تحت المقصلة فى ٦ من يونيه عام ١٥٣٤.

وهكذا، لم يكن أول كتاب عن المدينة الفاضلة، الذى يضم فى خلاياه روح كل الاشتراكية فى أوروپا، عملا لشخص حالم ولكن لرجل واقعى، عرف وعاش الرأسمالية التجارية فى كل المستويات والمسئوليات التى تولاها، حتى أعلى المناصب. فقام بتحليل آلياتها وتأثيراتها الفاسدة.

أول جزء من مدينته الفاضلة كرّسه لدراسة التطور الإنجليزى .

من أجل تشجيع تجارة الصوف قام الإقطاعيون القدامى والتجار الأغنياء باحتكار الأرض التى كان يزرعها الفلاحون بمنتجات غذائية، وقاموا بطردهم من مزارعهم، وأغلقوا (بناء على قانون الإغلاق) مساحات شاسعة من الأراضى وحولوها إلى مراع لرعى الأغنام من أجل تغذية سوق الصوف . وقام توماس مور بإعطاء وصف دقيق ومأساوى لتلك العملية الرأسمالية الوليدة، فقال :

«وهكذا أغلق بخيل جشع الأراضى وجعلها أرضا مغلقة واحدة : وطرد مزارعين شرفاء من منازلهم، بعضهم بالتزوير، والبعض الآخر بالعنف، أما المحظوظون منهم فغادروا المكان بعد سلسلة من المضايقات والمنازعات التى دفعتهم إلى بيع ممتلكاتهم . هذه العائلات، الكثيرة والفقيرة، (حيث إن الزراعة فى حاجة دائمة إلى العديد من الأيدى العاملة) هاجروا من الريف، أزواجا وزوجات، أرامل وأيتاما، أباء وأمهات مع أطفال صغار . التعساء هربوا وهم يبكون المنزل الذى ولدوا فيه، والأرض التى تغذوا عليها، ولا يعرفون أين يلجئون . فقاموا ببيع كل ما استطاعوا حمله معهم بأسعار بخسة، وهى كلها سلع لم يكن لها أبدا أى قيمة مادية كبيرة . وعندما فرغت مصادرهم الضعيفة، ماذا تبقى لديهم؟ السرقة، ثم الإعدام شنقا فى المزارع» .

«ضعوا حدودا على الجشع الأنانى للأغنياء، احرموهم من حق الاحتكار . أعطوا الزراعة الفرصة للتطور الكبير، قوموا ببناء مصانع للصوف، وفروع أخرى للصناعة، حيث يمكن أن يعمل كل هذا العدد من الرجال الذين تحولوا بسبب البؤس والفقر إلى لصوص وغوغاء» .

وكان رده على هؤلاء الذين لا يرون إلا «الشنق وسيلة لمواجهة قطاع الطرق» أنه «يرى من الظلم قتل رجل لأنه سرق مالا، طالما أن المجتمع الإنسانى لا يستطيع أن ينظم نفسه بحيث يضمن لكل إنسان قطعة مساوية من الخبز».

وفيما يلى الفكرة الرئيسية التى تم التوصل إليها من خلال نقد النظام القائم فى إنجلترا بعد انتصار الرأسمالية:

«فى كل مكان حيث الملكية هى حق فردى، وحيث يتم قياس كل شىء بقيمته المادية، لن نستطيع أبدا أن ننظم العدالة والملكية الاجتماعية، إلا إذا رأينا أن المجتمع العادل هو المجتمع الذى يعدّ أفضل ما عنده هو اقتسام ما هو الأكثر شرا، وأن الدولة السعيدة هى الدولة حيث الثروة العامة تصبح غنيمة حفنة من الأفراد الجشعين، بينما العامة يلتهمها البؤس.

أعتقد أنه من المستحيل تطبيق المساواة فى دولة حيث الملكية مسألة خاصة ومطلقة، لأن كل شخص يعطى لنفسه السلطة والحقوق من أجل جذب كل ما يستطيعه لنفسه، أما الثروة القومية، مهما كانت كبيرة، فتقع فى النهاية فى أيدى عدد قليل من الأفراد الذين لا يتركون للآخرين إلا العوز والبؤس.

إن ما يؤكد لى بلا رجعة أن الوسيلة الوحيدة لتوزيع الثروات بالتساوى، وبالعدل، وتحقيق سعادة البشرية، هى إلغاء الملكية؛ لأن الحق فى الملكية طالما يمثل الأساس للبنية الاجتماعية، فإن الطبقة الأكثر عددا والأفضل، لن تحصل عندما يجرى الاقتسام، إلا على الفتات والعذاب واليأس».

«لهذا السبب، عندما أتأمل وأتصور الجمهوريات المزدهرة اليوم، فلا أرى إلا مؤامرة من الأغنياء لكى يقوموا بأعمالهم بأفضل وسيلة باسم «جمهورية» ذلك العنوان الباذخ. السحرة يبحثون بكل السبل الملتوية وبكل الوسائل الممكنة للوصول إلى هذا الهدف المزدوج: الأول هو التأكد من التملك الأكيد وغير المحدود لثروة حصلوا عليها بطرق غير شريفة. والثانى، استغلال بؤس الفقراء، وكيانهم الإنسانى، والشراء بأبخس الأسعار صناعتهم وعمالهم. وتلك الآلية التى شرعها الأغنياء باسم الدولة ثم بالتالى باسم الفقراء أيضا، أصبحت قوانين».

فى مواجهة ذلك المجتمع الذى قام على أساس السلطة المطلقة لسوق المال، لم يطرح توماس مور خيالات رومانسية. لقد أراد أن ينحاز للتجربة فى مشروعاته كما فعل فى انتقاده.

فلقد أظهر أن مجتمعا مختلفا تماما فى مبادئه نفسها، ممكن. وهو ممكن لأنه موجود بالفعل، رغم عدم اكتماله، فى العالم الجديد.

هناك، يوجد شكل آخر من التنمية حيث الهدف ليس تراكم الذهب ولكن ازدهار الإنسان: «إنه فى تلك التنمية الكاملة تكمن السعادة الحقيقية». (الكتاب ٢)

كان المصدر الأول لمعلومات توماس مور هو التقارير التى كتبها (أميريجو ڤيسپوتشى Amerigo Vespucci هذا الذى أعطى اسمه لأمريكا) عن رحلاته الأربع التى قام بها إلى العالم الجديد، ونشرت فى عام ١٥٠٧، وأيضا شهود العيان مثل محاوره رافائيل، الذى قال

لنا عنه : «البرتغال وطنه . وعندما كان لايزال شابا ، تنازل عن إرثه لأشقائه . ولأنه كان ممتلئا بالرغبة فى رؤية العالم ، ارتبط بشخص ومصير أميريجو فيسپوتشى . فلم يتخلَّ عن ملازمة هذا الملاح العبقرى لحظة واحدة طوال الرحلات الثلاث الأخيرة من بين رحلاته الأربع ، التى أصبحنا نقرأ عن علاقاتها اليوم» . (الكتاب ١)

قال له رافائيل : «خيالك لم يشكل أى فكرة لجمهورية مماثلة ، أو أنه يكون فكرة خاطئة عنها . إذا كنت فى المدينة الفاضلة ، إذا كنت قد شاركت فى عرض مؤسساتها وأخلاقياتها ، مثلى أنا ، الذى قضيت خمس سنوات من حياتى فيها ، ولم أقرر أن أغادرها إلا من أجل أن أقدم هذا العالم الجديد إلى العالم القديم ، فستعترف أنه لا يوجد فى أى مكان آخر ، مجتمعا بهذا التكامل التنظيمى» .

وقال توماس مور : «لقد لاحظت أن هناك عددا كبيرا من القوانين القادرة على تنوير وإعادة الشباب إلى الأمم والممالك التى شاخت فى أوروپا القديمة . . كم من القرون نحتاج إليها لكى نستطيع أن نقترض كل ما هو كامل فى حضارتها» .

وفى مواجهة الاقتصاديين فى النظم الرأسمالية الوليدة ، الذين يرون أن قوانين السوق مثل القوانين الطبيعية ، اكتشف رافائيل «شعوبا ومدنا وقرى ، حيث المؤسسات تختلف جذريا مع مؤسسات قارتنا حيث الذهب يعبد مثل الإله ، ويسعون إليه مثل الحاكم . . كل شىء يدعو إلى الإبقاء على الذهب والفضة فى مكانة دنيئة» . فهم لا يعدّونه مالا . «الذهب والفضة ليس لهما ـ لديهم ـ أى قيمة ، أى استخدام ، أى

ملكية . . أى قيمة غير تلك التى منحتها لهما الطبيعة . . إنه الجنون الإنسانى الذى أعطاهما كل تلك القيمة بسبب قلتهما».

«فى المدينة الفاضلة، الجشع مستحيل، لأن المال ليس له أى استخدام، ورغم ذلك ألم يمنع أسبابا كثيرة من دواعى الحزن؟ وفى الحقيقة، من ذا الذى لا يعرف . . إن كان التزوير، والاعتداء، والنهب، والشجار، والاضطراب، والعراك، والتحريض، والقتل، والخيانة، والتسمم، كل تلك الجرائم التى ينتقم منها المجتمع من خلال الدعوات المستمرة فقط بلا قدرة على منعها، ستزول تماما فى اليوم الذى يختفى فيه المال؟ فى هذا اليوم سيختفى أيضا الخوف والقلق والاهتمام والتعب والسهر. حتى الفقر، الذى وحده فى حاجة إلى المال، سيقل فى نفس اللحظة، إذا ألغى المال تماما».

بعكس مجتمعاتنا، حيث الثروات هى مقياس كل شىء، «فإن ما غيّر هذه الأفكار، قيام الأسس التى بنيت عليها تلك الجمهورية الغريبة، أقصد الشيوع فى الحياة والأشياء بلا تجارة المال».

فى مجتمع حيث السوق أصبحت هى التى تنظم كل العلاقات الاجتماعية، يصبح كل إنسان منافسا، وغريما، ولا يمكن إقامة المجتمع الشيوعى، وتنتصر الفردية وحدها، حيث ـ كما كتب توماس مور ـ: «ما تضيفه إلى أملاك فرد، تأخذه من أملاك جاره».

على العكس من تلك الفردية يكمن المجتمع الشيوعى، أى المجتمع الذى كل فرد فيه يشعر بالمسئولية عن كل الآخرين.

كتب توماس مور يقول: «فى مكان آخر، مبدأ ماهو ملكك، وما هو ملكى، كرسته منظمة، آليتها معقدة بقدر ما هى مفسدة. لم تعد

تكفى آلاف وآلاف القوانين حتى يستطيع كل فرد أن يحصل على ملكية، ويدافع عنها، ويميزها عن ملكية الآخرين».

وأضاف رافائيل قائلا: «لقد حاولت أن أصف لك شكل تلك الجمهورية، التى أتصور أنها ليست فقط الأفضل، ولكنها أيضا الوحيدة التى تستطيع أن تمنح نفسها بحق اسم الجمهورية؛ لأن فى كل مكان آخر هؤلاء الذين يتحدثون عن المصلحة العامة لا يهتمون إلا بمصلحتهم الشخصية، بينما هناك حيث لا يملك أحد شيئا يهتم الجميع جديا بالمسألة العامة، لأن المسألة الخاصة تتداخل حقيقة مع المسألة العامة.

فى المدينة الفاضلة حيث كل شىء يملكه كل الناس، لا يفتقد أحد شيئا، بعدما تمتلئ المخازن العامة بالحبوب؛ لأن ثروة الدولة لا توزع أبدا بلا عدل فى تلك المدينة، والمرء لا يرى هناك لا فقيرا ولا شحاذا.

رفض الترف وكل ما هو بلا فائدة، يؤدى إلى أن «يعمل الشعب فى مهن ذى فائدة»، هناك أيضا عند طرفى نقيض المجتمع، حيث شهية الاستهلاك تؤدى إلى الطفيلية:

«أليس مجتمعا ظالما وناكرا للجميل، ذلك الذى أضفى كل تلك الممتلكات على من أطلق عليهم النبلاء، وعلى الكسالى، أو على هؤلاء صناع الترف، الذين لا يعرفون إلا التملق وخدمة الشهوات العبثية؟ بينما وعلى الجانب الآخر لا يحب أو يهتم بالكادحين، والفحامين، والفعلة، والعتالين، والعمال، الذين بدونهم لن يوجد مجتمع. وفى أنانيته القاسية، يستغل شبابهم لاستنزاف كل ما يستطيع أن يحصل عليه من عملهم ومن الأرباح».

«كل يعمل فى أعمال مفيدة» العمل اليدوى لا يستمر طويلا. ورغم ذلك، فإن هذا العمل هو ما يفرز الازدهار والفائض. وعندما تتراكم السلع يصدر مرسوم يسمح بخفض ساعات العمل، لأن الحكومة لا تسعى إلى إهلاك المواطنين فى أعمال لا طائل من ورائها.

«الهدف من المؤسسات الاجتماعية فى المدينة الفاضلة هو، أولا، سد الاحتياجات الخاصة بالاستهلاك العام والفردى، ثم إعطاء كل فرد الوقت الكافى بقدر الإمكان، لكى يعبُر من مرحلة استعباد الجسد، إلى تثقيف روحه بحرّية، وتنمية مداركه الفكرية من خلال دراسة العلوم والآداب. إنهم من خلال هذه التنمية الكاملة سيتآلفون مع السعادة الحقيقية».

وذكر توماس مور كيف وصل الهنود إلى أعلى مستوى فى المعرفة العلمية، أى علم الفضاء.

وذكر فى النهاية حكمتهم ودينهم، وأشار إلى معناهما الإنسانى: «إنهم يفسرون الشرف كما يلى: أن نحيا حسب الطبيعة. الله، عندما خلق الإنسان، لم يعطه أى مصير آخر».

«سكان الجزيرة، مع أنهم لا يؤمنون بالمسيحية، إلا أنهم لا يعارضون انتشارها» لأنهم، «يعيبون بشدة باسم الأخلاق، الشخص الذى يحط من قدر وكرامة الطبيعة إلى حد أن يتصور أن العالم يسير عشوائيا». (ذلك لأنهم يعيشون الدين الأساسى والأول الموجود فى كل إنسان: سواء أطلقنا عليه اسم الله، أو أى اسم آخر، هذا الدين هو بمثابة قول: إن الحياة لها معنى.

«أيضا عندما أقوم بالمقارنة بين المؤسسات الأوروبية وتلك التى فى الدول الأخرى، لا أستطيع إلا أن أعجب بالحكمة والإنسانية من ناحية، ولكن من ناحية أخرى، أندد بالهذيان والهمجية».

***

مونتين Montaigne (1533-1592) فى كتابه مقالات (الكتاب الأول، الفصل الثانى)، بعنوان: أكلة لحوم البشر، ينتقد بعنف التوجه الجديد للتاريخ ويذكر ما كان يمكن أن يكون إذا تم لقاء آخر بين العالمين، مؤسسا على الحوار والاستفادة المتبادلة وليس على أساس نفى الآخر وشن حرب النهب والإبادة لهنود أمريكا.

بدأ مونتين من التاريخ العام للهند للوبيز دى جومارا Lopez de Gomara وقرأه قراءة نقدية بالاستماع إلى شهادة بحار من الأمريكيتين الذى سمح له بمقابلات عديدة مع «مختلف البحارة والتجار الذين عرفهم فى تلك الرحلة». (مقالات، الكتاب الأول، الفصل ٣١)

لم يكتف بلعن المذابح التى ارتكبها الغزاة: «من الذى وضع مثل هذا الثمن على السوق والتجارة؟ لقد تم تسوية العديد من المدن بالأرض، وإبادة العديد من الأوطان، وتم قمع بحد السيف الملايين من أبناء الشعوب، بينما الأغنياء والجزء الجميل من العالم، مضطرب بسبب المفاوضات التى تجرى حول اللآلئ والفلفل. إنها مجرد انتصارات آلية. لم يحدث أبدا أن دفعت الطموحات والكراهية

الظاهرة الأفراد البعض ضد البعض الآخر، فى معارك بشعة وكوارث بائسة مثل تلك». (مقالات الكتاب الثالث، الفصل السادس)

وعلى العكس من كل ذلك، أضاف مونتين قائلا (الأول، ٢١) «ليس هناك أى شيء همجى أو متوحش فى تلك الأمة . . إلا إذا كان المرء يصف بالهمجية كل ما لا يتعامل معه . . إنهم يتصفون بالبربرية فقط فى المعنى الذى نطلقه على الفواكه التى تنمو من الطبيعة . . بينما كان الأفضل أن نطلق صفة الهمجية على كل ما قمنا بتغييره من خلال تدخلنا الاصطناعى، وأحيد عن النظام العام».

القس بارتولوميو دى لاس كاساس أكد على صفة الهمجية للغزاة فقال: **«لإطعام الكلاب، يقودون الهنود مقيدين فى سلاسل.. فيقتلونهم ويقيمون مذابح متنقلة للحم البشر»**.

وكتب مونتين الحكيم، الذى استمع إلى شهود العيان من القضاة والقساوسة، عن آكلى لحوم البشر، فقال: «إنه لا يحزننى أننا نلاحظ البشاعة الهمجية فى مثل ذلك العمل . . ولكننا عندما نحاول أن نحاكم أخطاءهم، فإننا لا نرى أخطاءنا. أعتقد أنه أكثر همجية أن نأكل إنسانا حيا، عن أكله ميتا، وأن نحطمه من خلال التعذيب والآلام . . ونجعله فريسة للكلاب . . عن أن نشويه فوق النار ثم نأكله بعد موته . . فى هذه الحالة يمكن أن نصفهم بالهمجية . . ولكن ليس بمقارنتهم بنا، حيث إننا نتجاوزهم فى كل أنواع الهمجية». (الأول، ٣١)

وقارن شجاعة الهنود الذين تقبلوا أن «يعانوا من الموت طواعية بدلا من الاستسلام لسيطرة هؤلاء الذين انتهكوا آدميتهم بشكل مخجل إلى

هذا الحد»، أما الانتصار الآلى للغزاة، فقد تحقق بسبب الاختلاف بين الأسلحة. (مقالات، المجلد الثالث، الفصل السادس)

ولكن فى تواز مع جشع الغربيين، الذين اهتموا فقط بالبحث عن مناجم الذهب، ذكر روعة العمارة لديهم، «عظمة مدن كوزكو والمكسيك» (الثالث، ٦).

ولقد أكد شهود على شهادته حول تلك العمارة المدنية. كاتب اليوميات بيرنال دييز دى كاستيللو Bernal Diez de Castello، الذى دخل تينوكتيتلان (Tenochtitlan المكسيك حاليا) مع قوات كورتيز، كتب يقول: «كان بيننا جنود عاشوا فى القسطنطينية، وفى إيطاليا، وفى روما، ويقولون إن مكانا بنى بكل ذلك التجانس بين كل هؤلاء المواطنين، وحيث يسود كل هذا النظام، لم يروه فى أى مكان آخر».

وفى بيرو، صاح بيزارى Pizarre نفسه، قائلا: «لا شىء فى البلاد المسيحية يماثل عظمة تلك الطرق». وبعد سنوات، أكد المفكر الألمانى جيليوم دى هامبولد Guillaume de Humboldt قائلا: «هذه الطرق، التى تم رصفها بحجارة كبيرة قد تقارن بأجمل الطرق الرومانية، التى لم يبن الإنسان من قبل أعمالا أكثر فائدة وأكبر حجما منها».

هذه الشبكة من الطرق لم تكن إلا نظام المواصلات لمجتمع أعطى قبل أى مجتمع آخر، المثل على غياب الملكية الخاصة فى حضارة عالية التطور، أثارت حماسة أكثر النفوس كرما فى أوروپا: كامپانيللا Campanella بدا أنه أسس مدينته الفاضلة فى پيرو باسم مدينة الشمس، والقس موريللى Morelly كتب فى كتابه باسيلياد أن إمكانية

وجود نظام لا يقوم على الملكية الخاصة «لا يمكن تخيله إلا فى أمريكا القديمة حيث إن أخلاقيات الشعوب (التى وصفها) تتشابه، بشكل ما، مع أخلاقيات شعوب الإمبراطورية التى تتمتع أكثر من أى إمبراطورية أخرى بالازدهار والانضباط: أقصد هنا أخلاقيات أبناء بيرو».

أما عن الجودة الجمالية لأعمال الهنود الأمريكيين، فكتب ألبير ديورر Albert Durer أحد الشهود، فى كتابه رسائل، يقول: «لقد رأيت ما قدمه لى ملك البلاد الذهبية الجديدة: شمس من الذهب الخالص كبيرة حجما.. وقمر من الفضة الخالصة.. وكان ذلك من أجمل ما رأت العين.. فلم أر أبدا شيئا يسعد القلب مثل تلك الأشياء».

لم يعد هناك إلا القليل من كل تلك الأعمال الجميلة، فلقد قام الغزاة بتحويلها كلها إلى سبائك ذهب وفضة.

العلوم عند المايا فاقت تلك التى كانت فى أوروبا فى الوقت نفسه.

فى علم الفلك، قام حكماؤهم بحساب السنة الفلكية لتضم ٣٦٥,٢٢٢ يوما، وهو رقم محدد أكثر من التقويم لدى جريجوار الثالث عشر (١٥٠٢ـ ١٥٨٥)، والذى جاء بعده بخمسة قرون: إذ إنه يخطئ فى يوم من كل ستة آلاف عام.

كما نظموا جدولا يتنبأ بكسوف الشمس.

ذلك يعدّ تطورا كبيرا فى الرياضيات: فالنظام الرقمى الذى استخدموه، والذى لم يكن عشريا مثل نظامنا، تفوق على النظم التى عرفها الرومان والإغريق.

لم يكن هناك شعب فى العالم يتبارى مع هنود أمريكا (وبخاصة المايا) فى كمية النباتات التى يزرعونها، خصوصا الذرة، والبطاطس، والمطاط.

وذكر مونتين كيف أن اللقاء بين أوروبا وأمريكا الهندية، كان من الممكن أن يكون مختلفا عن ذلك اللقاء الذى تم مع الجنود الأجلاف، والتجار المتعطشين للذهب:

«لقد التقى عالمنا بعالم آخر. . هذا العالم الآخر سيدخل إلى النور عندما يخرج عالمنا منه. . رغم تخوفى من أننا سارعنا من انهياره وتدميره، من خلال العدوى، معًا. إن معظم إجاباتهم والمفاوضات التى جرت معهم تشهد على أنهم ليسوا أدنى منا، لا فى وضوح رؤيتهم الطبيعية ولا فى دقتها. . كم كان سهلا أن نكتسب الكثير من نفوس متجددة مثل تلك. .

ولكن بالعكس، فلقد استغللنا جهلهم وضآلة تجاربهم من أجل توجيههم إلى الخيانة والترف والجشع، ونحو كل ما هو لا إنسانى وقاسٍ ليماثل نموذجنا من الأخلاقيات». (مقالات ٣، ٦).

بعض تلك الملاحظات عن الهنود الأمريكيين لا يمثل انحرافا، ولكن حماية من الادعاء الغربى بأنه هو الذى يقدم النموذج الأوحد للحداثة والتقدم، وتذكيرا بمستقبل محتمل من اللقاء الحقيقى بين الحضارات من أجل بناء وحدة، متآلفة وليس إمبريالية، للعالم.

الفصل الرابع

المستقبل بدأ بالفعل

بذور الأمل: صحوة آسيا: طريق الحرير الجديد

صحوة أمريكا اللاتينية: حضارة المناطق الاستوائية

بذور الأمل:

صحوة آسيا: طريق الحرير الجديد

هذا المستقبل الذى مازال داخل البذرة، ومقبل على احتمالات جديدة، بدأ بالفعل. بدأ هناك حيث يولد النهار: فى الشرق. وحيث نشأت لأول مرة فكرة الوحدة الإنسانية والإلهية للعالم: «أن يكون المرء واحدا مع الكل» هكذا تعلمنا عقيدة التاو Tao، سر المستقبل ذى الوجه الإنسانى.

آسيا، هذه القارة التى فكرت قبل كل الآخرين فى «الكل»، وعرفت أيضا السبل الروحانية للوصول إليه، فى الهند التى عرفت عقائد فيداس والأوبانيشاد والباجهافاد: جيتا وبوذا.

وفى آسيا حيث ظهر فى إيران، مع زرادشت، الطموح الإنسانى الكبير: صراع الخير ضد الشر، ودعوة كل فرد ليكون ضمن هؤلاء الذين يستيقظون عند نهاية الليل ليعملوا حتى مولد النهار.

وفى آسيا الأقرب، حيث الحضارات الكبرى من الهلال الخصيب إلى الاتصال بمصر وإخناتون، تطورت فكرة التوحيد مما أعطى أفقا إلهيا للوحدة الإنسانية، ومع رفع يسوع، أعلن عن غروب آلهة القوة

والحروب من أجل أن يتقدم التفوق الحقيقى للإنسان ولآلهة حياة البسطاء والمحرومين.

***

من هذا العالم يعود لنا اليوم النور: رؤية لمستقبل ذى وجه إنسانى، كونية حقيقية، غنية بمساهمات كل الحضارات.

إنه طريق حرير جديد فى شكله المستقبلى، يمتد من شنغهاى إلى روتردام، يسير بسرعة ٥٠٠ كم فى الساعة فى قطار مغناطيسى معلق.

اليوم، الجسر الأوروبى الآسيوى سيكون هو البوتقة لإعادة بناء الوحدة الإنسانية، ليس فقط فى الجزيرة الأوروبية ـ الآسيوية الكبرى، ولكن مع العالم كله بدون استثناء؛ مع إفريقيا، التى لم تنفصل اصطناعيا عن آسيا إلا عبر بضعة أمتار تكوّن قناة السويس، ومع أمريكا التى يصبح من الممكن عبور مضيق بيهرينج، من خلال نفق يربطه بالجزيرة الكبرى الأخرى: أمريكا، التى انقسمت هى أيضا اصطناعيا إلى جزأين عن طريق بضعة أمتار عبر قناة پنما.

من المحيط الهادئ إلى الأطلنطى وعبر أتربة القارات الإضافية من أستراليا إلى جرينلاند، هناك نظام جديد متحد يعيد بناء الوحدة الإنسانية، تساهم فيه كل الثقافات الروحانية والمادية بدون تبعية ولا هيمنة، لتمثل آلاف السنين من عظمة الإنسان.

المستقبل بدأ يوم ٧ من مايو عام ١٩٩٦ فى پكين.

في هذا اليوم، اجتمعت ٣٤ دولة من أجل الاشتراك في بناء الجسر الكبير عبر القارة الآسيوية ـ الأوروبية. إنه طريق الحرير الجديد الذي ربط طوال ١٤ قرنا، الشرق بالغرب وبإفريقيا، ليس فقط من خلال التبادل التجاري ولكن أيضا من خلال الإثراء المتبادل للثقافات والعلوم والتكنيك والروحانيات.

«طريق الحرير» هذا هو طريق القرن الواحد والعشرين: الذي سيحقق أولا وحدة الجزيرة الكبرى الآسيوية الأوروبية (حيث أوروبا هي مجرد شبه جزيرة صغيرة)، مع الوسائل العلمية والتكنيكية للعالمين، بالإضافة إلى شبكة كبيرة من الطرق والقنوات التي تسمح بالملاحة والري لتحويل صحاري وسط آسيا التي دامت آلاف السنوات، إلى مواطن للحياة، وبناء مولدات كهرباء، وخطوط أنابيب بترول وغاز، واتصالات، وبناء المدن على مدى ٢٠٠ كم من المحاور الثلاثة الكبرى من جسر القارة الآسيوية الأوروبية، الذي سيربط، عبر الطريق البري، المحيط الهادئ بالمحيط الأطلنطي.

إنه ليس حلما ولا هو مشروع خيالي لأن التطبيق بدأ بالفعل.

في يوم ١٢ من سبتمبر عام ١٩٩٠ بدأت شبكة سكة الحديد الصينية تشغيل معبر جديد عند آلاتاو Alataw، (على الحدود بين الصين وقزاقستان) مع الشبكة الحديدية القديمة للاتحاد السوفييتي.

وخلال ١١ عاما، من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٦، ساهمت الاستثمارات الصينية الكبيرة في تجديد ٢٠٠٠ كم من الخطوط الحديدية، استعدادا لبناء الجسر عبر القارة الآسيوية الأوروبية في المستقبل.

في يوم ٧ مايو عام ١٩٩٦ ، أوضح ري زينجوين Rui zingwen ، رئيس اللجنة المسئولة عن تنفيذ الجسر ، أبعاد مشروع عملاق كهذا من أجل خلق وحدة سلمية ومتآلفة في العالم ، هذا المشروع المفتوح للجميع ، ليس فقط في مراحل تنفيذه ، ولكن أيضا في استغلال قدراته حتى إفريقيا وأمريكا .

على العكس من عولمة السوق ، التعبير الخفي لطموحات الإمبريالية للهيمنة على العالم ، تبدأ هنا دورة جديدة من الحضارة .

إنها تبدأ بروح جديدة تماما ، تستثنى منها كل محاولة لهيمنة شعب مختار على الشعوب الأخرى أو شعب حضارى على الهمجيين .

بعد حضارات الدلتا ، من النيل إلى النهر الأصفر ، وحضارة البحر المتوسط العظيمة ، ثم حضارة الأطلنطى ، فإننا اليوم بصدد جغرافيا سياسية ذات صبغة جديدة تماما . حتى الآن ، حسب الأمثلة الأخيرة ، ليس هناك إلا جغرافيا سياسية للقوة ، سواء كانت القوة فى البحر ، التى استخلصها ماك كيندر فى عصر ازدهار الإمبراطورية الإنجليزية ، أو قوة القارات ، كما طرحها فريدريك هوسوفير . بينما قام هتلر بتدمير سياسة إدارة المساحة ، لتتحول إلى جغرافيا سياسية للفضاء الحيوى (ليبنسراوم) .

هذه المرة نحن لسنا بصدد جغرافيا سياسية للهيمنة ، ولكن للتحرر من خلال تفتح الأزهار فى الكون كله ، وحتى صحاريه ، بمساعدة الجميع ، فى عالم عدّ كيانا واحدا بدون ادعاءات لأى فرد بالهيمنة عليه واستغلاله .

إننا بصدد إعطاء ٨٠٪ من شعوب العالم، اللانامية بسبب تبعيتها أو حصارها بالصحارى، الإمكانات لتحقيق نمو إنسانى بحت.

تبدأ هذه الحضارة من ثلاثة طرق تمتد عبر الجزيرة الكبرى الآسيوية الأوروپية. الطريق الأول يمر فى الشمال، (حيث امتد فى البداية خط السكك الحديدية عبر سيبيريا لأهداف استعمارية). هذا الطريق سيربط أولا المراكز الصينية الكبرى مع أوروپا مرورا بقازقستان وقيرقيزيا التى فك عنهما الحصار، لينضما إلى أوروپا الغربية والشمالية، وذلك بإحياء خطة ديلور (رئيس اللجنة الأوروپية الأسبق) الخاصة بالأعمال الكبرى للبنية التحتية، ولكن التى حددت نفسها بأوروپا.

الطريق الأوسط سيرتبط بالطريق الأول عند قازقستان، ويتجه إلى الجنوب نحو طشقند وأوزپكستان، وتركمنستان، وبحر قزوين، وآذربيجان، وچورچيا، ثم ينضم إلى البحر الأسود، ثم بعد ذلك بلغاريا، ورومانيا والمجر إلى أن يصل إلى وسط أوروپا.

أما طريق الجنوب، الذى ينطلق من أشقاباد إلى تركمنستان، فسيتجه نحو إيران لكى يتجه عبر مشهد، وطهران وتبريز، نحو تركيا، وعبر البوسفور ثم البلقان، ليصل إلى جنوبى أوروپا، وعبرها إلى شمال إفريقيا.

هذه الطرق تضم ٤٠ دولة (أى ٢٢٪ من سكان العالم) وتعيش على ما يقرب من ٤٠ مليون كم مربع، أى أكثر من ٢٦٪ من أراضى الكون.

(إنه لمن المدهش، أن فى ندوة بكين، التى افتتحت دورة جديدة من الحضارة، لم تمنحها أجهزة الإعلام الغربية سطرا واحدا، بينما كانت

تخصص صفحات كاملة عن عمليات التزوير فى مباراة لكرة القدم فى فرنسا، أو عن فضائح الليدى ديانا فى إنجلترا).

رغم كل شىء، فلقد بدأ العمل، وفى البداية كان مشروع سد الثلاثة چورچ على نهر يانج تسى كيانج.

إن تاريخ الصين يمثل إلى حد كبير تاريخ التحكم فى المياه. ولقد انعكس ذلك أيضا فى أساطيرها: الإمبراطور الأسطورى يو العظيم، الذى روض الأنهار وحفر قنوات للرى.

بالرجوع إلى التاريخ وألفى عام من المعطيات المائية، شهدت البلاد ٢٠٠ فيضانا (أى بمعدل فيضان كل عشر سنوات).

أسفرت أقل الفيضانات عن مقتل الآلاف، أما أكبرها فقتلت عشرات الآلاف. أكبر كارثة وقعت فى عام ١٨٧٠ تلك التى أسفرت عن مقتل ٣٠٠ ألف شخص.

على امتداد كل تاريخ الصين، كان همها الأكبر وضع حد لكل تلك الكوارث، فقررت الحكومة الصينية أن تبنى هذا السد العملاق الذى بدأت المرحلة الأولى منه فى عام ١٩٩٤ . ليمتد العمل فيه ١٧ عاما، ويتكلف نحو ٥٠ مليار فرنك فرنسى. إنه سد يبلغ ٢٣٥٠ مترا طولا، و١٧٥ مترا ارتفاعا فى بعض الأماكن. وسيغرق نحو ٣٠ ألف هكتار من الأراضى، مما يعنى ترحيل نحو مليون إنسان من أقاليم سيتشوان وهوبيه.

ولقد بدأت احتجاجات خبراء البيئة فيما يتعلق بتأثير السد على البيئة. وليس عجيبا أن يكون البنك الدولى هو الذى بدأ الاحتجاج،

إذ أعرب عن «قلقه إزاء الثقافة الاجتماعية والبيئة»! فى الوقت الذى يترك فيه الشركات متعددة الجنسيات تدمر رئتى العالم بتدميرها غابات الأمازون وإندونيسيا! متناسيا أن الفيضانات الصينية أسفرت عن اختفاء ١٤٥ ألف شخص فى عام ١٩٣١، و٤٠ ألفا فى عام ١٩٥٤، و٣٠ ألفا فى عام ١٩٥٨.

أما السبب فى ذلك الاحتجاج، فهو أن الحكومة الصينية تجمع الاستثمارات بدون الخضوع للأوامر السياسية لصندوق النقد الدولى، ورفضت الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية.

بالإضافة إلى ذلك، تعمل الصين على ألا تستثنى أحد من الاشتراك فى مشروعها الخاص بالجسر عبر القارة الأوروبية الآسيوية (تشارك شركة ميتسوبيشى بالفعل فى المشروع بموافقة الحكومة اليابانية)، كما تسعى إلى إنشاء منطقة ضخمة من الإنتاج على مستوى «سوق» تضم مليارين من السكان، على ألا يتحول إلى ساحة معركة بين قراصنة الأموال الدولية.

أما سد الثلاثة چورچ، الذى يقام على نهر يانج تسى كيانج، فسيسمح وحده بتغذية محطة مائية تنتج ثمانية أضعاف ما ينتجه السد العالى، أى ما يعادل إحراق ٥٠ مليون طن من الفحم.

والمشروع يتضمن بناء طريق ملاحى مزدوج يسمح بمرور سفن بحجم عشرة آلاف طن فى النهر، من ووهان إلى تشونجكينج، ليصل سعة الانتقال من عشرة إلى خمسين مليون طن، مع خفض فى الأسعار يصل إلى الثلث.

وهكذا يتم حل مشكلتين أساسيتين للصين : الجفاف فى الشمال والفيضانات فى الجنوب .

أما عن إعادة توطين السكان الذين سيتم إجلاؤهم من مناطقهم الغارقة، فهم حسب البرنامج، سيصبحون روادا فى عملية استصلاح الصحراء وبناء مئات المدن على طول الجسر .

أما اليد العاملة المحلية فتتوافر فى الصين الشاسعة، حتى يمكن تنفيذ الأعمال وامتصاص البطالة .

ومن أجل تحقيق هذا المشروع العملاق، تدعو الصين إلى مشاركة العالم كله .

ولكن هذا يعنى أن على أوروپا أن تكسر القيد الاستعمارى وتحصل مرة أخرى على استقلالها . فلكى تستطيع أن تحل مشكلاتها فيما يتعلق بالبطالة، وتستطيع أن تنتج فى مصانعها مستلزمات السكة الحديد، وشاحنات وأدوات الحدادة، والاستجابة للاحتياجات الخاصة ببناء بعض المدن، فلا يجب عليها أن تكون مقيدة بوثاق الحظر الأمريكى داخل منظمة التجارة العالمية أو البنك الدولى .

عليها إذن أن تتحرر وتقطع كل صلاتها بكل تلك المؤسسات، فتصبح حرة فى توجيه استثمارات بنوكها، وبرامج شركاتها، حتى لا تسمح بالهجوم الذى تشنه المصالح الخاصة على المدى القصير، والتى هدفها الوحيد هو الاستيلاء على الأسواق والحصول منها على أكبر الأرباح .

الاتفاقيات يجب أن تعقد على المستوى القومى وتتضمن بنودا محددة للعمل وتحقيق أرباح معقولة .

لقد عقدت اتفاقيات تعاون مماثلة من قبل، على مستوى قومى وأخرى.

وبدأت إيران على سبيل المثال، تنفيذ حصتها من السكة الحديدية على طريق الحرير الجديد، طريق القرن الواحد والعشرين.

وبعد مساعدتها فى فك الحصار عن جمهوريات وسط آسيا: قزاقستان وقيرقيزيا وطاچيكستان، قامت إيران بتحسين الروابط بين القوقاز، ووسط آسيا وروسيا، من قزوين وحتى المحيط الهندى، وذلك عن طريق بناء حلقة مفقودة فى شبكة السكة الحديدية الآسيوية: من شأنها أن تربط الميناء الصينى ليانيونجاج مع بندر عباس، على مضيق هرمز على أن يمر عبره ٥٠٪ من بترول العالم، فيمر عبر آلماآتى (ألما آتا سابقا عاصمة مونغوليا) وطشقند ومشهد وطهران، ثم ربطهما بعد ذلك مع أوروپا من أسطنبول.

الجزء الذى يتم بناؤه الآن من ساراخ إلى بندر عباس، من شأنه توفير ٩٠٠ كم من الرحلة من طريق الحرير إلى الحدود مع پاكستان.

وفى عام ١٩٩٦، اتخذ القرار فى بانكوك فى مؤتمر قمة الآسيان (منظمة دول جنوب آسيا) لبناء الخط الحديدى من سنغافورة إلى تايلاند من أجل الانضمام إلى طريق الحرير، وإعادة ربط ماليزيا بالصين.

مرة أخرى، المسألة ليست مجرد توقعات هلامية: الخط مشهد- فدجين (فى تركمنستان) افتتح فى ١٣ من مايو عام ١٩٩٦ . وأشاد به الرئيس رافسنجانى ووصفه بـ «تحول فى تاريخ المنطقة» وأطلق على هذا اليوم الذى امتد فيه طريق الحرير، يوم «الصداقة بين الشعوب».

إن طريق الحرير الجديد، طريق القرن الواحد والعشرين، سيقوم حقا بتغيير محور العالم، ولهذا السبب تحتدم قوى الماضى ضده.

فى مؤتمر بكين، دعت الصين، بكرَم متناه سير ليون بريتان، (نائب رئيس اللجنة الأوروبية وعميل أمريكى إنجليزىّ من أجل إخضاع أوروبا لأوامر الولايات المتحدة) الذى قام خلال كلمته التى ألقاها، بذكر حروف WTO أى منظمة التجارة الدولية، ١٢ مرة فى محاولة لإجبارهم على دمج المشروع فى الإطار الأمريكى لوحدانية السوق، كما هدد باتخاذ إجراءات ضد أى محاولة للهروب من ذلك.

من ناحية أخرى، قدمت تركيا (ليست تلك التابعة للقادة العسكريين الذين انضموا تحت لواء إسرائيل والغرب) مساهمة كبرى لصحوة الأمل تلك عبر مشروع كونى كبير. فى يومى ٤ و٥ من يناير عام ١٩٩٧ فى إسطنبول، وبمبادرة من رئيس الوزراء حكمت أربكان، قام وزراء خارجية ٨ دول هى مصر وإندونيسيا وإيران وماليزيا ونيچيريا وپاكستان وبنجلادش وتركيا، بتأسيس منظمة D8 (الدول الثمانية النامية) لتحقيق توازن مع منظمة السبع الكبار للدول الاستعمارية. أعلن أربكان فى كلمته الافتتاحية أن اتحادا جديدا للدول الإسلامية سيعمل على تحقيق «هدف ثقافى وسياسى مناضل» من أجل «وضع حد لسيطرة الدول الصناعية الغربية على القطاع النامى».

هذا الاتحاد الجديد ليس ناديا مغلقا، بل هو حسب قول على أكبر ولاياتى وزير خارجية إيران، يمكنه أن يستقبل أعضاء جددا من أجل تشكيل جبهة جديدة من شأنها أن تبدأ فى تكوين نموذج آخر للتنمية

عن ذلك الذى يقدمه الغرب، لأن ـ فى رأيه ـ هناك عددا من الدول «لاتزال تحقق معدلات نمو غير كافية بسبب مشكلاتها المرتبطة بسعر العملات والديون الخارجية . . والعقبات فى التحول التكنولوچى . . والحدود التى فرضت على تنمية المصادر الإنسانية» .

تهدف منظمة الدول الثمانية النامية إلى ملء الفراغ الذى تركه حل حركة عدم الانحياز فعليا بعد عام ١٩٨٩ ، وهى الحركة التى نشأت فى باندونج . وأوصت المنظمة بتعاون أكبر مع المنظمات الأخرى مثل اتحاد دول جنوب شرق آسيا وجماعة التنمية بوسط إفريقيا .

إننا هنا بصدد النقيض مما كتبه صمويل هانتنجتون فى كتابه صدام الحضارات والذى بنى أفكاره على أساس المواجهة الأكيدة والقطبية بين ثقافات العالم : منظمة الدول الثمانية النامية، تمثل ٨٠٠ مليون إنسان، وبعكس ما توقعه الكتاب، أوصت بالتعاون الاقتصادى والثقافى على أساس من المساواة فى الحقوق : «مبدأ التعاون، بدلا من مبدإ الاستغلال الاستعمارى، يجب أن يشجعنا على العمل فى مناخ دولى سلمى» . ونادت بالتعاون حتى مع منظمة السبعة الكبار، لأنه ـ حسب ما جاء فى وكالة الأنباء الإيرانية إينرا ـ «بدون تعاون مع الجماعات الاقتصادية الأخرى، فلن يكون هناك أى فرصة للتقدم» .

ولقد أشارت الصحيفة السويسرية نيور زيرخين زايتونج، فى زيورخ، إلى أن منظمة الدول الثمانية النامية، بصفتها محاور مع منظمة السبعة الكبار، «تمثل حقوق الدول النامية التى، فى آسيا وإفريقيا، تتطابق مع حقوق العالم الإسلامى . وباسم الدول النامية يجب على المنظمة أن تشارك فى مولد النظام العالمى الجديد» .

فلقد أصبح واضحا، يوما بعد يوم، فى العالم غير الغربى، أنه مهما كانت الاتجاهات الدينية والروحانية، فإن ـ حسب قول أربكان ـ «عدم التنمية فى العديد من الدول هو نتيجة الإمپريالية الغربية».

هنا أيضا، المسألة ليست مجرد كلمات: فخلال رحلة أربكان إلى طهران، يومى ١٠ و١١ من أغسطس عام ١٩٩٦، وقعت كل من تركيا وإيران اتفاقيات حول الغاز والمواصلات والكهرباء من أجل تحسين روابط البنية التحتية بين الدولتين: كما ضم مشروع طريق حرير القرن الواحد والعشرين، عقدا بلغ ٢٠ مليار دولار يمتد ٢٣ عاما لنقل الغاز الإيرانى والتركمانى إلى تركيا عبر أنابيب غاز كان من المتوقع أن ينتهى العمل فيها عام ١٩٩٧، بالإضافة إلى مد خطوط الكهرباء والروابط فى السكك الحديدية، وذلك من خلال بناء الشطر الأخير بين تبريز (إيران) وفان (تركيا). كل ذلك يتم انتهاكا لسياسة العقوبات التى تفرضها الولايات المتحدة على إيران، ولكن مع حياد أوروپا السلمى. ما حدث ليس له علاقة فقط بمبادرة إسلامية من تركيا الجديدة: حتى الرئيس ديميريل دافع عن ذلك الموقف رغم اعتراض واشنطن فقال: «لهؤلاء الذين ينتقدون شراء تركيا الغاز الإيرانى، إننا نرد بأن تركيا دولة مستقلة. ونحن نصر على استمرار تطوير تعاوننا مع إيران».

(إن ما سبق هو نوع من الاستقلال الذى يجب على الزعماء الفرنسيين أن يحتذوا به، هؤلاء الزعماء الذين قرروا التخلى عن تعاقداتهم البترولية مع العراق بعد أن كشرت واشنطن عن أنيابها، والذين تجاهلوا كل التقاليد الديجولية الخاصة بالاستقلال ليس فقط

فى مسألة الانضمام إلى حلف الأطلنطى ولكن أيضا بالموافقة طواعية على أن تحتفظ الولايات المتحدة فقط بالقيادة).

مازال هناك بالطبع بعض الثغرات أو على الأقل نقاط الضعف المؤقتة فى بناء عالم المستقبل هذا: أول تلك الثغرات غياب وجود دولة فى روسيا، التى غرقت فى الفوضى وانتشار المافيا وعهر يلتسين وفريقه مع حاميه الأمريكى. ولكن متطلبات التاريخ ستفرض نفسها، مهما كان النظام الذى سيعيد إلى روسيا دولتها. لهذا أعلن أخيرا جريجورى كاراسين، نائب وزير الخارجية الروسى، أن موسكو ستعطى آسيا اهتماما متزايدا. وفى الحقيقة فإن الزعماء الروس يميلون إلى مساندة إيران، لأنهم يدركون أنه بدونها سيصبح من الصعب تنمية منطقة يوراسيا (أوروبا ـ آسيا). فسواء انطلقت الطرق من الصين أو وسط آسيا نحو المحيط الهندى أو الهادئ أو البحر المتوسط أو أوروبا، فإنها جميعا يجب أن تمر عبر إيران. ولكى يستطيعوا إقامة علاقات طويلة المدى مع الهند، وتحسين علاقاتهم مع الصين، فيجب على روسيا أن تساهم فى الحفاظ على الاستقرار فى إيران، وبالأخص فيما يتعلق بتوقيع اتفاقيات مع تلك الدول تستهدف تطوير الجسور البرية. وكانت روسيا قد قدمت بالفعل مشروعات من أجل تفعيل عملية بناء محطة بوشير التى من المنتظر أن تنتهى خلال ثلاث سنوات، رغم محاولات الغرب لعرقلة البناء. ومن ناحيتها تحاول إيران أن تمنع أفغانستان من إثارة عدم الاستقرار فى كل المنطقة وتهديد روسيا.. وخلال اجتماع منظمة الدول

الثمانية النامية، فى إسطنبول، تقابل الزعماء الأتراك والإيرانيون مع نظرائهم الپاكستانيين من أجل البحث عن حل للأزمة الأفغانية.

والحلقة الضعيفة الأخرى هى حلقة إفريقيا حيث الاستعمار مستمر فى عمليات التخريب رغم الهزائم التى تعرض لها. فإذا كان نظام الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا قد ألغى بانتصار نلسون مانديلا، فإن الولايات المتحدة لاتزال تساومهم على مساعداتها الاقتصادية مقابل تنازلات سياسية من جانبهم. أما فى الصومال، فقد اكتشفوا فجأة أن البلاد تعانى من المجاعة عندما اكتشفت شركات البترول الأمريكية آبار بترول داخل المياه على طول الساحل، وتحت عباءة التدخل الإنسانى (وهو اسم آخر للاستعمار) ومع الموافقة الضمنية للشخصيات الأوروپية والأراجوزات التى تحمل زكائب من الأرز أمام وسائل الإعلام فى ميناء مقديشيو، حاولوا وضع ديكتاتور فى السلطة كما فعلوا فى أمريكا الجنوبية، لكى يحقق استقرارا كافيا يسمح لهم بالبحث عن الهيدروكربونات. انتهت العملية بالفشل الذريع، ولكن الفوضى مستمرة.

أما السودان، التى تستطيع إطعام كل إفريقيا، بفضل الرى من قنوات النيل، فإن الولايات المتحدة تضغط على الجرح الذى ينزف فى الجنوب من خلال إرسالها الأسلحة والمال، وهى الحرب التى تتخفى فى زى التمرد العرقى أو الدينى، والأسلحة لاتزال تتدفق فى أريتريا.

فى رواندا وبوروندى، يزاول الاستعماران الفرنسى والإنجليزى

القديمان نزاعهما القديم عن طريق تسليح وتمويل وتدريب رجال التعذيب الذين يستخدمانهم، ونشر الفوضى فى صراعات قبائلية.

فى الجزائر، أشاد الزعماء الفرنسيون بقرار النظام العسكرى الجزائرى بإلغاء الانتخابات، واستمروا فى تمويل هذا النظام، مما يمنع الحوار القومى الذى يستطيع وحده وضع حد لكل تلك المذابح.

هناك نوع من التواطؤ الغربى بين جهود الولايات المتحدة والمستعمرين السابقين من أجل الاحتفاظ بعرائسهم الخشب فى السلطة ليلعبوا لعبة الكبار. والفرق بالنسبة لهم بين الإفريقى الجيد والإفريقى السيئ، هو من يلتزم بمعيار واحد: هل يوافق على أوامر صندوق النقد الدولى أم لا؟ هؤلاء الذين يرفضون هم من يتهمون بأنهم من الإسلاميين، أو الإرهابيين أو قبائل متمردة.

لذلك، فإن إفريقيا التى تعانى من أثر ذلك التدخل للاستعمار الجديد، تعانى أيضا من قلة عدد السكان، ولكن تربتها وما تحت التربة، يكاد يتفجر من الثراء بينما سكانها يموتون جوعا، والعالم تركهم لتنهش فيهم كل أنواع الأمراض، ومنها الإيدز.

وكمثل أساسى على إمكانات إفريقيا، فقد كانت الصحراء الكبرى فيما مضى عبارة عن غابة ومنطقة مراع كبيرة، تشهد على ذلك الرسومات التى حفرها الأقدمون من قبائل التاسيلى، مع قطعان الجاموس.

كان من الممكن استخدام ثمن الأسلحة والمساعدات التى قدمت إلى الزعماء الأفارقة لذبح مواطنيهم، فى تحويل الصحراء إلى أرض

خصبة مرة أخرى، حيث إنه من الممكن الوصول إلى المياه الجوفية فيها بسهولة فى معظم المناطق، من داكار إلى مدغشقر.

أما أمريكا اللاتينية التى تعد أكثر ثراء من إفريقيا، فلقد استنزفتها النظم الديكتاتورية العسكرية التى جاءت بها الولايات المتحدة إلى السلطة، ثم اختنقت بالديون ومطالب صندوق النقد الدولى، فولّد فيها بديل لنموذج التنمية الغربى الذى يقوم على الطاقة البترولية، وهى طاقة تحت الأرض (وهو ما يجعلها قابلة لأن تستنزف).

ولكن إذا كانت دول أمريكا اللاتينية تتمتع باستقلال كاف من القيد الأمريكى الشمالى والمتعاونين معه من النظم الديكتاتورية المحلية، فإنها ستستطيع أن تحقق ما أطلق عليها جيلبرتو فريير Gilberto Freyre وبوتيستو ڤيدال Bautisto Vidal : حضارة المناطق الاستوائية.

***

صحوة أمريكا اللاتينية:
حضارة المناطق الاستوائية

إن أسياد الحضارة الغربية الذين يسيطرون أو يؤثّرون اليوم تحت أشكال مختلفة، على الاقتصاد والفكر والمنظومة الاجتماعية وأسلوب الحياة لأكثر سكان العالم، بدءوا يأخذون شكلهم الحالى انطلاقا من المناطق ذات المناخ المعتدل فى جنوب القارة الأوروبية.

فمنذ القرن الخامس عشر بدأ التوسع العالمى لتلك الشعوب من خلال التجارة والغزوات. وما يمكن أن نطلق عليه عصر النهضة فى الغرب ما هو إلا تطور العقلانية كأداة للثقافة الأوروبية والتفوق التكنيكى والعسكرى الذى انبثق منه. ولقد أدت السيطرة على مصادر الطاقة وتكنيك تطورها فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، إلى سيطرة عالمية كريهة ومدمرة لكل الحضارات الأخرى.

خلال ذلك التوسع للمصادر الكبرى لقوة الحضارة الغربية (فى منظور هذه العقلانية الغربية التى تعمل على استقطاع الأهداف وتبحث فقط عن مضاعفة قوة وسائلها)، كان المصدر الأساسى للطاقة هو الحفريات الحرارية (الفحم أولا ـ فى إنجلترا وفرنسا

وألمانيا ـ الذى يحتاج إلى مؤسسات سياسية مركزية، لدول مؤسسة) وأدى التوسع الغربى إلى انحلال الحضارات الأخرى. فقد جلب عدم المساواة فى أخطر صورها: بين الشمال والجنوب، مع استعادة الاستعباد وكل أنواع التبعية، بينما نشأت فى داخل كل دولة غربية، قطبية متزايدة فى الثراء والسلطة، وتزايد عدد المبعدين.

إن تصدير الأسلوب الغربى فى التكنيك والإنتاج أسفر عن خسائر جمة من وجهة نظر عدم التوازن البيئى والبؤس الذى يعيش فيه أعداد كبيرة من البشر. وأدق أمثلة على هذا التدمير للتوازن الطبيعى هو تدمير الغابات الأمازونية والإندونيسية أو استغلال إفريقيا مما سمح للصحراء الكبرى أن تتوسع بضعة كيلومترات سنويا.

أما على المستوى العالمى، فلقد دمرت ثقافات كانت أفضل ما تناسب أوضاع المجتمع الذى قامت فيه وشكل الكيان الاجتماعى المرافق، وذلك لكى تفرض سلع موحدة سواء زراعية مثل القهوة والسكر والفستق إلخ. . أو من الناحية الصناعية من أجل نهب المصادر الأولية مثلما حدث أولا مع البترول، ولكن أيضا الثروات المعدنية. وهكذا تم تدمير، ليس فقط التوازن الطبيعى، ولكن أيضا أشكال الكيانات الاجتماعية التى استطاعت، منذ آلاف السنين، أن تعمل على الحفاظ على التوازن البيئى.

إن الاختيار من جانب واحد لمصادر الطاقة غير المتجددة والمنطق الداخلى للنظام الذى يسمح باستخدام كميات متزايدة دوما لتلك الطاقة، قاد إلى التوقع الحالى للاستنزاف الكامل لها، ولقد حدث

بالفعل أن أسفر الإيقاع الحالى لاستخدام المصادر الموجودة فى البترول فى العالم على توقع استنزافه كاملا. وحتى لو تم اكتشاف آبار جديدة تسمح بمد فترة استخدامه، إلا أن استنزافه الكامل أصبح أمرا لا محال فيه.

هذا الأسلوب فى استخدام الطاقات غير المتجددة يؤدى إلى تدمير مصادر ضخمة للطاقة المتجددة عمرها آلاف السنين. المثال الأوضح هو التخريب الذى يتم لغابات الأمازون من أجل توليد الطاقة الكهربائية بالطرق التى تستخدم فى الغرب.

تملك البرازيل - على سبيل المثال - نحو ٣٢٥ مليون هكتار من الأراضى غير صالحة للزراعة ولكنها قادرة، من خلال استغلال الغابات بطريقة مثلى، على استخدام نصف تلك المساحات (التى تمثل ٢٠٪ من الأراضى الوطنية). ذلك من شأنه أن ينتج بطريقة دائمة ما يعادل من ناحية الطاقة نحو ٦ مليارات برميل من البترول سنويا، أى ما يعادل الإنتاج الاجمالى لدول الأوپك.

يمكن للمرء أن يتصور بسهولة أن استخدام هذه الطاقة، ولو جزئيا، سيغير جذريا كل البناء الحالى للسلطة فى العالم.

ففى المناطق الاستوائية يمكن تطبيق توزيع جديد للسلطة، لأن تلك الطفرة التاريخية لإعادة تأهيل الإنسان الاستوائى وبيئته الطبيعية، سيسمح، انطلاقا من مصادر الطاقة المتجددة تلك، ببناء أشكال جديدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية. وذلك يتطلب وضع حد لاستغلال المصادر الطبيعية التى يقوم بها وحوش الغرب

وأتباعهم، وتأسيس نموذج من التنمية خاص بالاستغلال العقلانى لتلك المصادر المتجددة، مع الأخذ فى الاعتبار كل التبعيات السياسية، والإستراتيچية أو البيئية التى تنتج عنها.

فى تقرير ظهر مؤخرا: مشروع للطاقة والتكنولوچيا المكيفة على الظروف المناخية (برازيليا ١٩٨٦) تم الإشارة فيه إلى: «**السبب الأساسى لتدمير الغابات الاستوائية هو تطوير بنية اقتصادية مؤسسة على نماذج تكنولوچية مستوردة تؤدى إلى تدهور البيئة**».

جيلبرتو فريير، مؤسس تلك الفكرة عن حضارات المناطق الاستوائية، فى كتابه: «الإنسان والثقافة والمناطق الاستوائية».

بوتيستو فيدال، من مدرسة الپوليتكنيك فى البرازيل، أكمل ذلك التحليل قائلا:

«كمية الطاقة التى تسقط يوميا على المناطق الاستوائية الرطبة تعادل ٦ ملايين قنبلة نووية على شاكلة هيروشيما. وإذا كانت حضارة البترول هى حضارة اليوم الواحد، فإننا نملك هناك الأساس الحرارى لحضارة أخرى بشرط أن يوضع حد للتبعية للخارج. هذه التبعية كلفت بلادنا، البرازيل، من أجل أن تساهم فى ذلك التدمير، مليارين من الدولارات سنويا، أى ٤٠ مليارا فى ٢٠ عاما. (بالمقارنة مع خطة مارشال، التى وضعت من أجل إعادة بناء أوروبا بعد الحرب، وتكلفت ١٣ مليار دولار). تلك هى تكلفة هذه الحضارة التكنولوچية والتقسيم العالمى للعمل الذى خلق التبعية التكنولوچية.

مع النظام الحالى للتبعية نحن ننتج فى كوكوروى طاقة كهربائية تكلفنا ٤٢ دولارا لكل ميجاوات فى الساعة ونبيع ١٣ دولارا من أجل

إنتاج ألومينيوم التصدير . ذلك هو النموذج المحرف الذى فرضته علينا من الخارج الشركات الكبرى متعددة الجنسيات . الإفقار القادم أدى إلى استخدام الطاقة النووية . إنه هذا الأسلوب الذى نعمل على فرضه فى البرازيل . ومن المتوقع أن يتم إجلاء مساحة تبلغ ٤٠ كم من أجل تأمين السكان . إذا استطعنا أن نزرع على تلك المساحة ، غابة ، مستخدمين مكوناتها الحية ، فإننا سننتج طاقة تماثل ثلاثة أضعاف هذا المفاعل الخطير . المكونات الحية ، كشكل من أشكال الطاقة ، الشمس مصدر من مصادرها الأصلية ، ذلك المفاعل الضخم ذو درجة انصهار عالية ، ومن حسن الحظ أنها على مسافة بعيدة جدا . الطاقة الشمسية من شأنها خلق ظروف حياة دائمة وإنسانية .

البترول أيضا ، مصدره هو الشمس . وتكوينه يتم خلال ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ مليون سنة ، بينما الفحم النباتى ، أوالطاقة الهوائية ، أو المكونات الحية تتجدد بطريقة دائمة . النباتات تجذب تلك الطاقة من خلال الضوء .

تملك البرازيل ٥٠٪ من المناطق الاستوائية الرطبة فى هذا الكون . الـ ٥٠٪ الأخرى مقسمة بين عدد من الدول فى أمريكا اللاتينية وإفريقيا وجنوب شرق آسيا ، الذين يعانون من نفس المشكلات .

استمرارية طاقة العالم وكل العواقب الاجتماعية التى تنتج عنها تعتمد على تلك الطفرة التى تتضمن اندماج عميق للإنسان الاستوائى مع بيئته الطبيعية » .

المصدر : مستقبل حضارة المناطق الاستوائية ، الناشر جامعة برازيليا ، ١٩٩٠ (ص ٢٢١ ـ ٢٣١) .

الفهرست

رقم الإيداع ٢٢٠٥/ ٢٠٠٠
I.S.B.N 977- 09- 0608-5

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت.٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

كيف صنعنا القـــرن العشـــرين؟

هذا الكتاب ما هو إلا صرخة إنذار لكل الأحياء، وهى أولا صرخة ألم؛ لأن العالم كله هو جسدى، ولقد شعرت بالألم فى فلسطين وفى سيرتاو بالبرازيل، ورأسى يحترق من التمرد؛ لأن معظم زعمائنا السياسيين أوالروحانيين لا يتمردون، أو أنهم أصابهم الخواء.

إنها أيضا صرخة أمل؛ لأننى أعلم تماما أننى لست وحدى، فأنا ابن مليارات من الموتى الذين لم يعرفوا أبداً إن كان من الممكن أن يُستفاد من حياتهم وآلامهم وموتهم، ولكن أملهم سيعيش ألف عام فى صدور أبنائنا.

من هذه الشجرة أنا مجرد برعم، مجرد نطفة ولا ترضى أن تكون غير جديرة بما سينبثق عنها.

سنحارب حتى آخر نفس كل هؤلاء الذين يريدون أن يفرضوا علينا بقوة المليارات والصواريخ، تاريخا كاذبا ومستقبلا أفرغ من معناه، يريدون أن يفرضوا علينا الصمت على حقائقنا الجزئية والمضطربة.

روجيه جارودى



دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)